سلسلة أعلام الجهاد(١)

قدوة المستبصرين
الإمام الأعظم
زيد بن علي عليهم السلام

تأليف/
يحيى بن محمد المؤيد

راجعه وتولى تنسيقه والاشراف على طباعته
عبد الرحمن محمد المروني

تصدير

مما لا شك فيه أن التاريخ جهل -أو تجاهل- فضائل كثير من الفضلاء، وأتاح الفرصة لأعدائهم فتكلموا فيهم بما لا يليق.

ذلك لأن التاريخ ظلوم جهول متجاهل يتجاهل فضائل المصلحين المخلصين، وكثيراً ما يرفع شأن المبطلين ويثني على المفسدين، لأنه صفحة مفتوحة يسجل فيها الكتَّاب ما يشاءون فيحفظها لمن بعدهم.

فإن لم يجد من أهل الحق من يسجل على صفحاته حقهم، ويذكر فضائلهم، تجاهلها كما تجاهل فضائل من سبقهم، وأبقى كلمات أعدائهم، بل وأبدلهم بالنور ظلمة، وبالصدق كذباً، وبالذكر الجميل ذكراً قبيحاً، وبالحقائق أوهاماً وتشكيكاً. ثم لا يفتر يقلب الحقائق حتى يسمي الشهيد شيطاناً، والآمر بالمعروف ظالماً جباراً، والمصلح الذي يتهالك في إصلاح مجتمعه وأمته مفسداً مكاراً.

ونظراً لما اعتاده بعض المؤرخين من التهميش لتلك الشخصيات العظيمة من أهل البيت عليهم السلام.. وحتى لا يُظلمَ هذا الإمام المؤمن المجاهد، أو يسجل له التاريخ على ألسنة معاديه تاريخاً مظلماً مغلوطاً غير تاريخه الأبلج المشرق بالأنوار المحمدية والفضائل العلوية ..

نقدم هذا الكتاب مساهمة منا في نشر المعرفة؛ وإظهار الحقيقة؛ وتصحيح المفاهيم المغلوطة.

والله من وراء القصد.

الناشر

تقريظ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وبعد:

فقد أطلعت على ما حرره الولد العلامة يحيى بن محمد المؤيدي حفظه الله من تحرير موجز لسيرة الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام بالأسلوب القصصي المعاصر فأعجبني جداً ورجوت منه ومن أمثاله الاستمرار في هذا وأمثاله من سير أئمتنا أئمة المسلمين عليهم السلام

أسال الله سبحانه وتعالى أن يجعل عمله هذا في صحائف حسناته وأن يشركني معه في هذا العمل وأمثاله آمين

حرر ٢٣ رجب سنة ١٤١٩هـ

الفقير إلى الله / أحمد بن صلاح بن الهادي وفقه الله

تقديم

هناك نظرية من نظريات علم الاجتماع خلاصة مدلولها أن التأريخ يكتبه المنتصر، ويكاد الإنسان يؤمن بهذه القاعدة، ويجزم أن المقولة المشهورة: (التأريخ شاهد زور) حق لا مراء فيه من منطلق التجربة والتأمل لما هو مشاهد وملموس، ولا يكاد الواحد منا يقرأ في كتب التأريخ إلا ويشم منها رائحة الزيف والتضليل .. ذلك لأن تسجيل تلك الأحداث والوقائع انطلق من واقع الحرص على المصلحة الشخصية التي لن تكون إلا في التقرب إلى الولاة والسلاطين، وليس من واقع رصد الحقائق وتسجيل الوقائع بأمانة وإخلاص يرضى من رضي ويكره من كره الأمر الذي يعني أنه تم كتابة التأريخ في الغالب على أساس مسايرة الواقع والتقرب إلى الولاة والسلاطين فطمسوا الحقائق وقلبت الوقائع وتحول التأريخ إلى شاهد زور في محكمة لا تقبل شهادة الحق ولا تقبل في القضية أي طعن أو استئناف، ولقد سمعنا ورأينا بأم أعيننا كثيراً

من الأحداث والوقائع في تأريخنا القديم والمعاصر، تم تسجيلها على أساس وصف أصحاب النفوذ والسلطة بأوصاف العظيمة والمجد والتقديس والتنزية، وبالمقابل وصف الآخر بالخائن والعميل والمجرم والطاغية والـ .. و ... إلخ، وهكذا هو الحال دوماً على مر الزمن الأمر الذي يؤكد المقولة المشهورة لأمير المؤمنين عليه السلام: ((**إن الدنيا إذا أقبلت على المرء أعطته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه**)).

وإذا كان لكل قاعدة شواذ -كما يقال- فإن تلك القاعدة تتحطم عندما تكون القضية متعلقة بالحقيقة .. الحقيقة التي لا تطمس ولا يستطيع أحد كائناً من كان أن يمحوها من الوجود..

فحين يكون الموت في سبيل الانتصار للمبادئ والمحافظة على القيم والغيرة على الدين .. هنا يصبح الموت شهادة .. وتتحول الهزيمة إلى انتصار خالد وعز دائم لا ينتهي بانتهاء الجسد، وإنما يخلد بخلود الروح؛ لأن الله تعالى أراد ذلك وإذا أراد الله أمراً فلا راد لأمره وهو القائل جل وعلا: {وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} [آل عمران:١٣٩] ..

وهذه هي الحقيقة التي لا نقاش فيها ولا جدال وهي أن الموت

في سبيل الله شهادة والفناء في سبيل الحق خلود .. ومهما حاول أعداء الحقيقة طمسها ومواراتها عن العيون والأنظار فلن يحصلوا على شيء من ذلك، وستبوء كل جهودهم بالفشل؛ لأن الحقيقة من أمر الله، {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[الأنفال:٨] وإن للحقيقة قدرة فائقة على الحياة والانبعاث تماماً كالحبة الميتة التي تدفن تحت التراب فتخرج شجرة دائمة الخضرة، ولقد قال تعالى وهو أصدق القائلين: {أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ}[إبراهيم:٢٤] وقال جل وعلا: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ}[الرعد:١٧].

وإن الذي يقرأ **تأريخ** أهل أئمة البيت عليهم السلام ابتداء بإمام المتقين الإمام علي بن أبي طالب (ع) ومروراً بالحسن والحسين، وزيد، ومحمد النفس الزكية، والإمام الهادي .. وغيرهم من أئمة أهل البيت صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فسيجد هذه الحقيقة

ماثلة بين عينيه، وقدياً جلس عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه إلى جوار أبيه وقال له: يا أبت والله إنك لمن أفصح العرب فما بالك إذا خطبت وأتيت على ذكر هذا الرجل -يعني علي بن أبي طالب- أُرتُجّ عليك؟ فكان مما قاله عبد العزيز لإبنه: يا بني إن الدنيا ما بنت شيئاً إلا وهدمه الدين، وإن الدين ما بنى شيئاً وهدمته الدنيا ألا ترى أننا إذا ذكرنا هذا الرجل ولعناه على المنابر فكأنما نرفع بضبعه إلى السماء .. نعم .. (والحق ما شهدت به الأعداء)..

وقال الشافعي يوماً لأصحابه: ما تقولون في رجل -يعني علياً (ع)- كتم شيعته فضائله خوفاً وكتمها أعداؤه حسداً وخرج من بين الكتمين ماملأ الخافقين..

فهل استطاع أعداء أهل البيت على مر التأريخ أن يطمسوا الحقيقة؟ .. وهل استطاعوا أن يغيروا شيئاً من الواقع؟ ..

الجواب؛ أنهم ما غيروا شيئاً فها هو تأريخ أئمة أهل البيت عليهم السلام وفضائلهم ومناقبهم تملأ الآفاق .. فلا تكاد تدخل إلى مكتبة

من المكتبات العامة أو معرضاً من معارض الكتب الدولية إلا وتجد من الكتب والمجلدات الحاوية لمناقب أهل البيت وفضائلهم ما يبهر العقل ويملأ النفس دهشة وإعجاباً .. علاوة على ما هو لا يزال مخطوطاً ومدفوناَ لم يكتب له حتى اليوم أن يخرج وأن يظهر.

وإذا ما ذهبت تتنقل في رحاب الأرض الواسعة وجدت معالم أهل البيت وقبورهم ومقاماتهم تكاد تناطح السحاب علواً وارتفاعاً .. واسأل نفسك بعد ذلك أين الملوك التي كانت مسلطنة؟ أين معاوية؟ أين يزيد؟ أين هشام؟ أين المنصور؟ أين هارون؟ أين الأمين؟ أين المأمون؟ أين ..؟ أين ..؟ تجد أن الدنيا ما تركت لهؤلاء وأمثالهم حتى قبراً يذكر إلا تلك الأطلال التي تذكرنا بحقارة الدنيا وهوانها على الله {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ دَمَّرَ الله عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا}[محمد:١٠] وصدق الله العظيم القائل: {تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}[القصص:٨٣]..

ذلك لأن أهل البيت عليهم السلام قدموا أرواحهم رخيصة أمام مبادئ الإسلام التي بنى دعائمها جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وشيد أركانها أبوهم علي بن أبي طالب عليه السلام

فحملوا تلك المبادئ، وعاشوا من أجلها، وماتوا في سبيلها، لذلك انتصرت دماؤهم على سيوف أعدائهم، وكانت تلك الدماء الطاهرة سيولاً جارفة وبراكين قوية مدمرة، وقنابل موقوتة أزالت عروش الظالمين واقضّت مضاجع الطغاة وصيرت كراسي الجبابرة رماداً في مهب الريح العاصف، في الوقت الذي روت تلك الدماء الزكية شجرة المبادئ والحرية والكرامة ولولاها لما بقى لأمر الشريعة باقية، ولا قامت للدين قائمة .. أو بالأصح أنه لولا تلك المواقف والتضحيات التي قدمها الأئمة من أهل البيت عليهم السلام عبر حقبات التأريخ المتعاقبة لصار الإسلام مفروغاً من محتواه تماماً كما أخبر بذلك أمير المؤمنين (ع) بقوله: ((سيأتي على الناس زمان يُكفأ فيه الإسلام كما يُكفأ الإناء بما فيه))، وهذا هو الإسلام الذي يريده الطغاة في كل زمان منذ الأزل وحتى اليوم.

ولكن شاء الله أن تكون للحق راية، وأن يبقى للإسلام نوره حتى تقوم الساعة مصداقاً لقوله تعالى: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا من يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ على الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ على الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ من يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[المائدة:٥٤].

وإنه من الواجب -ليس فقط على المنتمين للمذهب الزيدي- بل وعلى الأمة بأسرها أن تقدر لهؤلاء الأئمة قدرهم وأن تعرف لهم مكانتهم .. لأنهم حين خرجوا إنما خرجوا لأجل الأمة وليس لأجل أهلهم وأبناء مذهبهم، وحين قدموا أرواحهم قدموها في سبيل الإسلام وليس في سبيل أطماعهم ومصالحهم الشخصية.

وإن المأساة التي ما بعدها مأساة أن كثيراً من الباحثين يشاركون في ظلم أهل البيت وغمط حقهم فيظلمونهم أمواتاً كما ظلموا أحياء حيث تجد الكثير من المثقفين والباحثين يصفون تلك المواقف والتضحيات أوصافاً لا تليق بها ويصنفها بعضهم على أنها ثوارت هاشمية، أو مقاتل طالبية، أو نحو ذلك، ليوحي من خلال ذلك الوصف أن هؤلاء الأئمة سلام عليهم إنما خرجوا باحثين عن سلطة أو طالبين للملك .. ومعاذ الله أن يكونوا خرجوا إلا لإقامة الشرع، وإحياء الدين، ورفع الظلم عن كاهل الأمة، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فهل كان خروج الحسين (ع) على يزيد طلباً للملك والسلطان؟ وهو الذي قال أصحابه يوم أن خرج مقولته المشهورة: ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به وإلى الباطل لا يُنهى عنه ليرغب المرء في لقاء ربه فإني لا أرى الموت إلا سعادة ولا

الحياة مع الظالمين إلا شقاوة، ثم قال:

سأمضي وما بالموت عار على الفتى

إذا ما نوى حقاً وجاهد مسلما

وواسى الرجال الصالحين بنفسه

وفارق مثبوراً وجاهد محرما

فإن عشت لم أندم وإن مت لم أَلم

كفى بك داء أن تعيش وترغما

وهل خرج الإمام زيد سلام الله عليه لطلب الملك أو السلطان وهو القائل –حين خفقت الرايات على رأسه–: ((الحمد لله الذي أكمل لي ديني أما والله لقد كنت استحي أن أقدم على محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر))، ثم أوصى ولده يحيى قائلاً: يا بني جاهدهم فوالله إنك لعلى الحق وإنهم لعلى الباطل، وان قتلاك لفي الجنة وان قتلاهم لفي النار.

وهكذا فإن كل أولئك الأئمة سلام الله عليهم ما خرجوا إلا على ما خرج عليه الحسين سلام الله عليه، وما قاتلوا إلا على ما

قاتل عليه أمير المؤمنين في صفين والجمل والنهروان، وسنرى من خلال هذه السلسلة ما يؤكد هذه الحقيقة .. وليعلم الجميع أن الإمام زيد ومن سار على نهجه من الأئمة سلام الله عليهم هو ذلك النموذج الوحيد الذي جسد نهج الإمام الحسين (ع) قولاً وعملاً، وإلا فأين أولئك الذين يتباكون على الإمام الحسين (ع) من الذي يقوم على منابذة الظالمين والجهاد في سبيل الحق والعدل ونصرة المظلومين؟ {لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ من الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ على الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ الله الْحُسْنَى وَفَضَّلَ الله الْمُجَاهِدِينَ على الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء:٩٥].

وها هو أستاذ من أساتذة العصر هو الدكتور أحمد محمود صبحي الذي قدم دراسة عن الزيدية وبعد أن استعرض في كتابه (الزيدية) نبذاً مختصرة عن بعض أئمة الجهاد والاستشهاد عقّب على ذلك بقوله: بعد هذه السلسلة المتصلة من المآسي لا بد أن يثور التساؤل عن جدوى الخروج، أما إيثار العافية فذلك نهج الشيعة الإثنى عشرية، ومع ذلك فأئمتهم جميعاً قد ماتوا -حسب قولهم- مقتولين

أو مسمومين، على أنه بالرغم من صدق بصيرة الإمام جعفر الصادق في أن لله حكمة خفية في حرمان آل البيت من الخلافة فذلك في نظر الزيدية لا يبرر القعود .. ذلك أن علياً قد سبق أن تنبأ بأن معاوية سيملك ما تحت قدميه، ومع ذلك فقد نصح أنصاره بعد أن طعن أن يستأنفوا حرب معاوية، وفي هذا إشارة خفية إلى ضرورة الخروج حتى لو كان النصر عسير المنال، ذلك أن شرط ترجيح النصر من أجل الخروج يشوبه مطمع دنيوي، وما لذلك يحارب أئمة ينتسبون إلى النبي، وإنما الخروج في نظر الزيدية تطبيق لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بقوة السيف وإلا تفشى الظلم واستشرى الفساد، فبفساد الحاكم تفسد الرعية، ولقد كان يزيد وهشام من الأمويين .. والمنصور والهادي من العباسيين .. ممن صدق قول الله فيهم: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}[محمد:٢٢] ولو أن شخصاً فاضلاً صالحاً لم تكن أمامه إلا أحد بديلين فصله من عمله وحرمانه رزقه وربما التخلص منه بالقتل فإنه لا شك يؤثر الموقف الثاني .. كذلك فعل أئمة الزيدية مسترشدين بقول الرسول: ((لا يحل لعين ترى الله يعصى أن تطرف حتى تغير أو تهجر))، وكذلك قوله -عليه السلام-: ((سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام جائر فنهاه فقتله))، ثم قال صبحي: وإن

تباهى أهل كل دين بشهدائهم فإنه يحق للمسلمين أن يتباهوا على الأمم بشهداء الزيدية[1].

وما يبغي الإشارة إليه في ختام هذا التقديم هو أن هذه السلسلة إنما ركزت على جانب واحد هو جانب مظلومية أهل البيت، وابرزت المواقف البطولات والتضحيات التي قدمتها تلك الشخصيات العظيمة في ساحات الجهاد، على أن هناك جوانب أخرى لم يكن باستطاعة هذه السلسة الاحاطة بها؛ لأن الاحاطة بتلك الجوانب كالعلم والزهد والعدل والكرم و... إلخ، لكل شخصية من تلك الشخصيات تحتاج إلى مجلدات، والأيام كفيلة بإذن الله تعالى لإيجاد سلسلة موسوعية عن هذه الشخصيات ليحيط القارئ بكل الجوانب المتعلقة بالشخصية.

على أن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن الشهيد يحيى المؤيد رحمه الله كان قد جمع هذه السلسة وطُبع بعضها في حياته دون أن

ستاذ حمد محمود صبحي الفلسفة الإسلامية بجامعة الأزهر الزيدية منشورات الزهراء للاعلام العربي الطبعة الثانية

تجد طريقها للمراجعة والتصحيح، ولذلك ظهرت المطبوعات السابقة بأخطاء كثيرة إملائية ولغوية، وقد تشرفت بتكليف مؤسسة الإمام زيد بمراجعتها وتصحيحها فأصلحت أخطاءها واكملت نواقصها وهذبت بعض عباراتها بقدر المستطاع.

ولا يسعنا في الأخير إلا أن نترحم على الشهيد المؤلف سائلين له من الله المغفرة والرضوان، كما لا ننسى أن نشكر مكتبة الوحدة بصعدة التي ساهمت إلى حد كبير في إخراج هذه السلسلة ونشرها بالتعاون مع مؤسسة الإمام زيد والقائمين عليها فجزى الله الجميع عن آل محمد خير الجزاء.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين

عبد الرحمن محمد المروني

صنعاء

١٥/ ٧/ ٢٠٠٢م

م

أقدم سطوري هذه بين يدي ذلك الإمام الأعظم..

الذي كان من حقه أن يسطر تاريخ حياته.. لا أقول بماء الذهب.. بل بأصله، وذلك قليل في حقه.

فمَنْ مثْلُه .. من علو مقامه تنازعت فيه الرياح وبطن الأرض والماء ..

فكل منهمُ يرجو من قربه شرفاً..

فباطن الأرض استحيى أن يدنّسهُ..

والدود ما طمعت يوماً بجثتهِ..

الناس إن ماتوا ذهبت مآثرهم..

وأسرع الدود كي يمحو محاسنهم..

إلا إمام المجاهدين أبت أعضاؤه إلا انتصاباً في العراق..

وفي باقي البلاد يجوب الرأس مرتفعاً.

ألقي الدروس لمن يعي .. حياً .. وأكمل ميتاً..

فمن مثلك يا قبلة الأحرار، وقدوة العباد، ومنهل العلماء

..

فدتك روحي وأرواح من في الكون قاطبةً ..

يوم اعتليت المجد، لتعيد للسنة الغراء سابق مجدها..

أنت الإمام وإن جردت من الدنيا وزخرفها..

فما كل ما فيها يليق بمن علا فوق مجد المجد أمجاداً ..

❊ ❊ ❊

إلى كل من يتصفح هذه السطور منتسباً إلى هذا الإمام

الأعظم زيد بن علي (عليهما السلام) أخط كلماتي هذه..

لأقول لهم كأني بكم وقد صرتم إلى ساحة المحشر ونُودِيَت كل أمة بإمامها. فأقبل عليكم زيد بن علي (عليهما السلام) برائحة أزكى من المسك قائلاً: ءأنتم الزيدية؟

حتى إذا قلتم: نعم.

قال: قد طوردت وأوذيت حياً، ثم قتلت فما استقريت في قبري حتى نبشت، ثم صلبت، ثم حرِّقت وذريت في اليم..

فحرمت حتى من قبر يواري جسدي، كل ذلك لأني سعيت للإصلاح في أمه جدي، ولأنفي عن هذا الدين تحريف الغالين وانتحال المبطلين.

فماذا قدمتم أنتم حتى صح لكم أن تنتسبوا إلي؟

هناك كأني بنا قد أُلجمنا وصرنا بين باك يبكي ومتحسر يتحسر.

فيا أتباع زيد بن علي (ع):

أغيثوا هذه المناهج الطاهرة قبل انقراضها فإني أرى وحُول أهل الضلال تكاد أن تغمرها..

فهاهم في كل موطن وفي كل مقام يشوهون محاسنها ويطمسون مفاخرها..

ولقد أصبحتم نهباً للطامعين وصيداً سهلاً للمضللين..

* * *

وفي ختام هذه السطور..

أود أن ألفت انتباه الأخ القارئ..

أني عندما بدأت في الكتابة عن هذه الشخصية قدمت القراءة عنها في كثير من المصادر حتى استطعت أن أُلِمَّ بشيءٍ عن ذلك العصر الذي عاش فيه من عدة جوانب السياسية والإجتماعية والإقتصادية والثقافية.

ثم بدأت في الكتابة فاكتشفت أنه من الصعب صياغة تلك المرويات القليلة عن حياة الإمام زيد في قالب قصصي مترابط وذلك لقلتها وتباعد أيامها فاضطررت إلى فك بعض النصوص المجملة وجعلها في أسلوب حواري،

وإضافة مشاهد حوارية استوحيتها من واقع ذلك العصر وطبيعة العلاقة بين طبقات المجتمع في تلك الفترة .. وحرصت على أن تكون بعيدة عن الأمور الشرعية.

وهي لا تتجاوز ثلاثة نصوص..

- حوار الإمام في سن الطفولة مع عبد الله بن الحسن الكامل.

- حوار الإمام مع محمد بن عمر بن علي بعد عرضهم على يوسف الثقفي.

- حوار الإمام مع أبي خالد الواسطي.

وأرجو من الله أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم وقربة لي بين يديه آمين.

يحيى محمد المؤيدي

صعدة

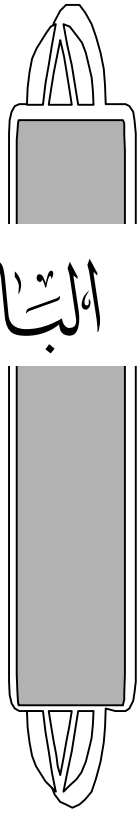

الباب الأول

مولد مبارك..

ونشأة طاهرة

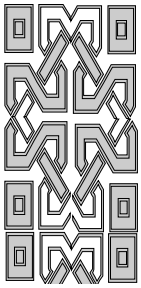

الباب الأول

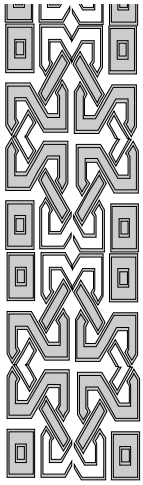

مولد مبارك..

ونشأة طاهرة

الفصل الأول

(١)

أخمدت الأصوات .. وصار المتنقل في أرجاء البلاد الإسلامية لا يسمع إلا همساً تشم منه رائحة الحرية والجهاد لتحرير الأمة الإسلامية من تلك الهيمنة التي تبث أعوانها وأنصارها .. لتصيِّر كل شبر من أرض الإسلام إلى سجن.

وصارت تلك البلاد المترامية الأطراف لا تمثل إلا زنزانة لكل الشرفاء الأحرار.

فها هي الهيمنة الأموية تتمركز في دمشق لتمثل ذلك الأخطبوط الذي يمد أطرافه ليختطف رؤوس العلماء

والأحرار على تفرق بلدانهم لا تأخذهم بهم رحمة أو شفقة.

فكلمات أبي سفيان التي ترددت أصداؤها في آذانهم: ((هاهي قد آلت إليكم يا بني أمية -يعني الخلافة- فتلقفوها تلقف الكرة في أيدي صبيانكم .. فو الله ما من جنة ولا نار)) جعلت سلاطين الدولة الأموية لا يفكرون إلا في بقاء ملكهم .. واستمرار هيمنتهم ..

فهذا معاوية يؤسس ملكه بقتال أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصحابته .. ثم يختمه بسَمِّ الحسن بن علي عليهما السلام وقتل حجر بن عدي وأصحابه صبرا.

وأسلم الدَّور إلى ولده البار الذي سار على نهج أبيه الخطوة بالخطوة .. فاستهل ولايته بسفك دم الحسين وأهل بيته عليهم السلام في أشنع معركة عرفها تاريخ البشرية .. ثم ختمها باستباحة مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم ثلاثة أيام .. وقتل صفوة من تبقى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة .. ثم أدخل جيشه إلى مكة ليفعل فيها مثل ما فعل في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

ثم انتقل الملك إلى عبد الملك ابن طريد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم -مروان بن الحكم- ثم إلى بنيه ليزداد الأمر سوءاً .. وتزداد الأمة سوءاً في واقعها المأساوي .. وتذرف دموع الندم لتفريطها في مناصرة تلك السلالة الطاهرة .. تتجرع أنواع القهر.

فالحجاج في العراق يحصد الرؤوس كما يُحصد الزرع في الحقول .. وأخوه يذيق أهل اليمن من الذل ألواناً .. وآخر في مصر .. وهكذا.

* * *

وأوشكت الأمة الإسلامية أن تلفظ أنفاسها الأخيرة على أيدي تلك السلالة التي جند أفرادها نفوسهم لمحو كل

فضيلة أسسها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

فجعل الأخيارُ يتلفتون يميناً وشمالاً باحثين عن رجل صالح يستنقذ هذه الأمة من وضعها المأساوي.

فراسلوا زين العابدين في المدينة يطالبونه بالخروج ويقسمون له الأيمان المغلظة ويعطونه العهود الموثقة على النصرة والجهاد بين يديه.

ولكن ذلك المشهد المأساوي الذي حدث أمام عيني زين العابدين كان لا يزال حياً في ذاكرته.

قتلك الأجساد الطاهرة التي رآها تتهاوى بين يديه ما زالت ماثلة أما عينيه فرأس أبيه ذلك الذي حُمل فوق الأسنة لعشرات الأيام وهو يسير في ركبه كان مشهداً لا يُنسى .. وأولئك النساء الثكالى والأطفال الجياع .. أخوه علي الأكبر ، وعمه العباس، وأبناء عمه الحسن، تلك الوجوه المشرقة التي رآها تغيب وتأفل على مرأى ومسمع منه ما كانت لتجعله يثق في أولئك الذين يمدون إليه

أيديهم بالبيعة.

فهو يعلم أنه من خان أباه .. وأسلمه لأعدائه -بل وخرج في ركب أعدائه- لا شك سيكرر نفس المشهد معه.

ولذلك اعتزل الناس ومضى يكابد أحزانه ويبث شكواه إلى ربه .. ويمد يد العون لجيرانه وأهل بيته .. ويرعى أولئك النسوة والصبيان الذين فقدوا رجالهم مع والده الحسين بن علي عليهما السلام.

فلجأ الناس في العراق إلى رجل من أحرار الأمة وأتقيائها كان يسمى المختار بن أبي عبيد الثقفي ليقود جحافل الأمة الماضية ويحرر العراق من ولاة الأمويين الذين عاثوا في الأرض فساداً .. فأحسن إلى الأمة وساد العدل مع شيء من الخوف والوجل للمستقبل الغامض.

وما هي إلا أيام حتى مكّن الله المختار بن أبي عبيد الثقفي من قتلة الحسين وشفى غليل صدور قوم مؤمنين .. فقتل عبيد الله بن زياد، وعمر بن سعد، وشمرّ بن ذي

الجوشن .. ورفع رؤوسهم فوق الأسنة .. وتتبع كل من شارك في قتل الحسين .. في القرى والوديان وفي أعالي الجبال .. ولم يدرك رجلاً شارك أو أعان على قتل الحسين إلا
وقتله شر قتلة.

(٢)

وما إن استتب الأمر للمختار الثقفي حتى أراد أن يعبِّر عن ولائه لأهل البيت عليهم السلام.

فمع بزوغ شمس أحد الأيام كانت هناك قافلة تحث الخطى نحو مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم محملة بالهدايا وبينها جارية غاية في الحسن والجمال والعلم والفصاحة .. وما هي إلا أيام حتى أطلت على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لتحط رحالها على باب بيت زين العابدين..

ليُطرق باب ذلك البيت الذي تسوده السكينة والوقار ..

لا يسمع فيه إلا التسبيح والتهليل .. سكانه أشبه بالملائكة لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ..

فُتح الباب وسمع صوت يقول: تفضل يا عبد الله..

الغلام: هل هذا هو بيت زين العابدين؟

محمد بن علي: نعم يا أخي تفضل..

دخل الغلام وجعل يمشي خلف محمد بن علي حتى أدخله إلى إحدى الغرف .. فوقف ذلك الغلام مذهولاً أمام منظر سمع عنه الكثير ولكنه فاق كل تصور ..

فسجادة من القش يجلس عليها رجل في منتصف العمر يكاد النور يتفجر من بين عينيه .. قد برزت ثفناته وأصفرَّ لونه .. لا تكاد عيناه تجف عن الدموع .. ذو لحية مستديرة عشماء.

تلفت يميناً وشمالاً ليرى غرفة تكاد أن تكون خالية من الأثاث إلا من بعض قطع تشغل بعض زوايا الغرفة.

أدرك الغلام أنه يقف أمام تلك الشخصية التي طار صيتها ليبلغ المشارق والمغارب من دولة الإسلام.

الغلام: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تنحى زين العابدين عن طرف سجادته وقال: وعليكَ السلام ورحمة الله وبركاته .. تفضل يا ولدي ..

جلس الغلام وبادر زين العابدين قائلاً:

- يا سيدي أرسلني إليكم مولاي المختار بن أبي عبيد الثقفي لأبلغك منه السلام .. وأن تقبل منه ما في هذه القافلة هدية منه وإعلاناً لولائه ومحبته لكم .. وسيره على منهاج وطريقة آبائكم سلام الله عليهم .. وقد حملت إليك يا سيدي مع هذه القافلة جارية هي غاية في الحسن والعلم والورع والجمال لم يرَ مولاي أنّ على وجه هذه الأرض من هو أحق بها منك.

زين العابدين: شكر الله سعيك يا ولدي وكتب أجرك .. بلّغ مولاك عنا السلام .. وقل له قد قبلت الهدية

فجزاه الله عن آل رسول الله خير الجزاء.

ووضع زين العابدين يده على كتف الغلام ليقول له:

- تفضل يا بني مع ولدي محمد ليقدم لكم حق الضيافة .. ويعد لكم مكاناً للإستراحة من وعثاء السفر.

وأقبل محمد بن علي إلى الغلام في لطف وجعل يمشي بين يديه يلاطفه في الكلام ويسأله عن أحوال أهل العراق .. فأدخله إلى مكان قد أعده له ولأصحابه .. فإذا به يجد أصحابه قد أدخلوا إلى ذلك المكان واستضافهم الإمام زين العابدين ثلاثة أيام..ثم ودعهم وأعطى كلاً منهم ما يكفي حاجته ويزيد .. فخرجوا من المدينة .. وقد استولى عليهم الذهول لما رأوا من الحفاوة والأخلاق وحسن الضيافة.

فجعلوا يسرعون في المشي، ويحثُّون الخطى نحو العراق، حاملين رسالة علي بن الحسين إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ..

ولكن شيئاً ما كان يشغل ذهن الغلام الذي اختاره المختار ليكون قائداً لهذه القافلة..

فكثيراً ما كان يشرد بتفكيره بعيداً عن رفاقه في القافلة مما يضطرهم إلى تنبيهه مرة تلو الأخرى.

وما كادت القافلة تصل إلى ساحة قصر المختار بن أبي عبيد الثقفي حتى أسرع ذلك الغلام نحو مجلس المختار بن عبيد الله.

واستقبله المختار بوجه دلّت ملامحه على فرحة عميقة .. وبادره المختار قائلاً:

- قص علينا أحداث رحلتك .. فو الله لقد اشتد شوقنا لسماع أخبار مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتعرف على أحوال أهل البيت سلام الله عليهم هناك.

الغلام: مولاي هل تريد أن أسمعك كل ما رأيت أم أعجب ما رأيت؟ فيكفيك عن كثير الكلام.

المختار: تكلم بما تريد.

الغلام: يا مولاي .. والذي بعث محمداً بالحق رسولاً ما خرجت من بيت زين العابدين وفي بيته حبة من خردل مما حملته له من الهدايا إلا تلك الجارية اتخذها لنفسه بعد أن عرض عليها الزواج من أحد أبنائه فأبت إلا البقاء عنده لما رأت عليه من النور وسيماء الصلاح .. فقد رأيته يا مولاي لا يكاد ينتصف عليه الليل إلا وقد شد وسطه بحبل .. وجعل يحمل ما يستطيع حمله ثم يخرج ويعود فارغ اليدين .. فدفعني الفضول فتبعته .. فما رأيته يمر على دار من دور فقراء أهل المدينة إلا ويضع عند بابه من ذلك شيئاً ثم يطرق الباب .. وقبل أن يفتح الباب ينطلق مسرعاً كاللص الذي يخشى أن يُعرف .. فوالله لا يكاد أحد منهم يعلم مصدر ذلك الرزق.

المختار: رحمة الله عليهم من أهل بيتٍ ما أرحمهم بأمة جدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. والله لو اعطوا حقهم لعم إحسانهم البلاد .. ولضربوا أروع الأمثلة

في العدل والإحسان.. ولكن هل أوصاك بشيء ..؟

الغلام: أمرني أن أبلغك منه السلام .. ثم أسألك كيف استطعت مع حبك لآل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن تجاور قوماً خضبوا سيوفهم بدماء ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قريب؟

المختار- وقد اغرورقت عيناه بالدموع: والله لئن مكنني الله منهم ليرى زين العابدين من حالهم ما يقر عينه ويشفى غليله فما أعظم جرحه .. فمن منا أصيب بمثل مصيبته .. فوالله ما أخرجني على هؤلاء حب جاه أو سلطة .. ما أخرجني إلا طلب الثأر من أولئك الفساق الذين اجترأوا على حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته فسفكوا دماءهم وساقوهم سبايا.

الفصل الثاني

استمر الظلم يخيم على البلاد الإسلامية .. وتمادى الولاة الأمويون في الإساءة إلى الأمة الإسلامية يظلمون العباد .. ويبالغون في الإساءة إلى كل من يصدع بالحق .. أو يبصِّر عامة الأمة بحقيقة هذا الدين .. حتى أصبحت المنابر والمساجد .. أماكن للتجني والسباب.

وفي داخل تلك البيوت المتواضعة كان أهل البيت عليهم السلام .. يعلمون الناس معالم دينهم .. ويصححون للناس عقائدهم .. في معزل عن الجواسيس والعيون الأموية التي كانت ترقبهم بعناية وحقد وحذر.

وفي أحد هذه البيوت كان الإمام زين العابدين (ع) .. يتجرع الآلام لحال الأمة ولا يجد أمامه سوى الدعاء والمناجاة والخلوة مع الله .. وفي ليلة من ليالي عام ٨٠هـ

أخذته غفوة نوم وهو في مصلاه .. فإذا به يرى فيما يراه النائم
أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أدخله الجنة فزوجه بحورية من حورها وولدت له ولداً .. فإذا به يسمع هاتفاً يقول: ليهنئك زيد.

ومع طلوع الفجر كان هناك طرق خفيف على باب غرفته.

علي بن الحسين: من الطارق؟

الجارية: ياسيدي إن الجارية السندية توشك أن تضع حملها .. وقد اشتد عليها الألم .. فادع لها يا سيدي لعل الله أن يفرج عنها كربتها.

غمرت الفرحة زين العابدين وكأنه يبشر بمولوده الأول .. فقد توسم في ذلك الحمل خيراً .. فتوجه يدعو الله لها بالفرج.

وما هي إلا لحظات حتى سمع صوت ذلك المولود الجديد الذي كان لصوته وقْع خاص في أذنيه .. فقد إمتلك

عليه قلبه حتى قبل أن يراه.

وبعد أن صلى الفجر دخلت عليه إحدى جواريه وهي تحمل ذلك المولود .. وكان من عادته أنه لا يتكلم بعد الفجر حتى طلوع الشمس.

فنظر إليه زين العابدين فإذا هو كامل الخلق أبيض الوجه.

فحمله بين ذراعيه .. ثم أذَّن في أذنه اليمنى وأقام في الأخرى وتَوَّجَه بأول قُبْلة على جبينه .. ثم دفعه إلى الجاريه .. وعاد إلى مصلاه.

ومع شروق الشمس دخل محمد بن علي متهلل الوجه يهنئ أباه بالمولود الجديد وجلس إلى جوار أبيه.

فتناول زين العابدين مصحفاً كان بجواره .. ثم قال: بسم الله الرحمن الرحيم .. وفتح المصحف .. فإذا به يرى في أول الصفحة من جهة اليمين قول الله سبحانه وتعالى: {وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا}[النساء:٩٥].

ثم فتحه مرة ثانية فخرج له قول الله سبحانه وتعالى:

{إِنَّ اللهَ اشْتَرَى من الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ}[التوبة:١١١]، فحدث نفسه بصوت مسموع قائلاً: هو والله زيد ..

محمد بن علي: ومن زيد هذا يا أبي؟

علي بن الحسين: اسمع يا ولدي فوالله لئن طال بك العمر لترى هذا المولود مصلوباً بكناسة الكوفه .. فقد بلغني عن جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال «**المظلوم من أهل بيتي سمي هذا .. المقتول في الله والمصلوب من أمتي سمي هذا**» وأشار إلى زيد بن حارثه .. ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم لزيد: «**أدن مني يا زيد زادك الله عندي حباً فإنك سمي الحبيب من ولدي**».

قد سمعت يا محمد ما رويت لك عن جدك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والله لقد رأيت في منامي مازادني يقيناً بأنه المصلوب .. فليكن اسمه زيداً.

الفصل الثالث

جعل زيد بن علي يترعرع في حجر أبيه .. يحوطه بعنايته ويغمره بعطفه.

وفي أحد الأيام أسرع محمد بن علي وهو يحمل أخاه زيداً بين يديه فوضعه في حجر أبيه زين العابدين فجعل يناغيه ويلاعبه ووضعت مائدة الطعام بين يدي زين العابدين .

زين العابدين: يا محمد .. عليّ بأخيك زيد.

محمد بن علي: تفضل يا أبي.

أقبل زين العابدين على مائدة الطعام .. فانشغل عن الأكل بإطعام ولده زيد .

فكان يبرد له اللقمة ويشتغل بانتقاء غيرها .. فلا يكمل زيد مضغ الأولى حتى يعد له الأخرى.

محمد بن علي: أبي.. هلاَّ أعطيتني زيداً لأطعمه .. وأكملت أنت تناول طعامك؟

زين العابدين: لا عليك يا ولدي سيأتي اليوم الذي أتركه أمانة بين يديك.

محمد بن علي: أدام الله ظلك يا أبي .. وفَدَتك نفسي .. فما أعتقد أن في هذه الدنيا من يملأ مكانك .. فأبقاك الله لأمة محمد ولنا وأطال الله عمرك.

ومرت الأيام والسنون وذلك الطفل الصغير يزداد نمواً وأبوه يحيطه بعناية خاصة لفتت نظر أخيه الأكبر محمد الباقر .. فعلم أن لهذا الطفل شأناً فجعل هو الآخر يحوطه بعنايته.

وبدأ زيد بن علي يتخطى باب الدار فيلاعب أقرانه .. من أبناء عمومته عبد الله بن الحسن بن الحسن .. وابن أخيه جعفر بن محمد اللذين كانا في مثل سنِّه .. فيفوقهما

ذكاء وفطنة .. ولكنه كان كثير الصحبة لأبيه والبقاء إلى جواره فما كان زين العابدين يطيق كثرة فراقه.

* * *

وفي أحد الأيام بينما كان زين العابدين علي بن الحسين (ع) جالساً مع مجموعة من أصحابه .. إذ أقبل عليه زيد مسرعاً والدم يسيل من جبينه وهو يصيح: أبي .. أبي..

أقبل عليه زين العابدين وعلامات الخوف بادية على وجهه .. ونادى أحد غلمانه: يا غلام عليّ بخرقة وماء .. وجعل يمسح الدم ويضمد الجرح .. ويردد: أعيذك الله أن تكون زيداً المصلوب بكناسة الكوفة.

وبعد أن ضمد جرحه وعاد إلى أصحابه.. سأله أحدهم:

- يا سيدي سمعتك تعيذ ولدك أن يكون هو المصلوب بالكوفة .. فماذا قصدت يا سيدي؟

تنفس زين العابدين الصعداء ثم التفت إلى السائل ومن إلى جواره من الأصحاب فقال: اسمعوا ما سمعته

عن أبي .. مما يرويه عن جدي علي (عليه السلام) قال:

- لما أخبرني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((إنه يُقتل ولدي الحسين .. ويُقتل من ولده رجل يسمى زيداً -لم يلد أبوه بعد- يصلب في كناسة الكوفة)) .. وإني أخاف أن يكون ولدي هذا هو المقصود.

جعل القوم يعوذونه بالله أن يكون هو زيد المصلوب .. وتعلقت أنظارهم بذلك الطفل الذي لم يبلغ الرابعة من عمره ينظرون إليه بعين الخوف والشفقة.

أحدهم: والله لقد عجبت لما رأيت على وجهك من القلق عندما دخل ولدك زيد فالجرح لا يستحق منك كل هذا الخوف .. أما وقد سمعت هذا الخبر فو الله إن نياط قلـــبي تكاد أن تتمزق حزناً وإشفاقاً عليه.

* * *

لم تكن تلك التنبآت لتقتصر على زين العابدين .. بل كان هناك من يعلم بمثل هذه الروايات.

فبينما كان الإمام زيد(ع) يلعب في بعض الأيام مع أقرانه إذ رآه إبن الحنفيه محمد بن علي بن أبي طالب .. فجعل ينظر إلى زيد نظرة الحزين المشفق وناداه قائلاً: تعال يا زيد..

فأقبل عليه زيد .. فجعل يحادثه ويلاعبه .. ثم حمله وقبله .. وقال أعيذك بالله أن تكون زيداً المصلوب بالكوفة.

وخرجت تلك التنبوءات من بيوت أهل البيت لتنتشر في أوساط عامة الناس .. وطرقت مسامع الولاة من بني أمية .. فاشتد خوفهم .. وبالغوا في إيذاء أهل البيت عليهم السلام .. وبثوا حولهم الجواسيس .. والرقباء يحصون عليهم حتى أنفاسهم.

كان الإمام زيد (ع) يتنقل بين دور بني هاشم .. ويجلس إلى كبارهم ويلعب مع صغارهم .. ويرتوي من ذلك المنبع الصافي والمنهل العذب.

وجعل زيد لا يكاد يفارق أباه .. يصلي بصلاته ..

ويأنس إلى سماع تلاوته ويحاكيه في كل أفعاله.

فما كاد يبلغ العاشرة من عمره .. إلا وقد حفظ القرآن وغاص في فنون العلم .. وبدأ يشعر بوضع أهل البيت وحالهم الذي لا يحسدون عليه .. فكل بيوتهم كان لا يسمع فيها إلا النحيب والمناجاة.

في الوقت الذي كانوا يتخوفون أن يتحدثوا عما حدث بالأمس في كربلاء من مآسٍ وويلات .. فقد كان الحديث عنها يعد جريمة تعاقب عليها السلطة الأموية.

وفي أحد الأيام سمع زيد بن علي عليه السلام حواراً هز مشاعره وغيّر مجرى حياته.

فبينما هو يسمع النحيب والمناجاة التي تعود أن يسمعها وبالذات من والده زين العابدين .. سمع غلام أبيه يقول: يا سيدي أما آن لحزنك أن ينفض وبكائك أن يقل؟

فرفع زين العابدين رأسه من سجوده .. وإذا بالدموع قد بلت وجهه ولحيته وقال له:

- ويحك .. إن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبي ابن

نبي ابن نبي له أحد عشر إبنا .. فغيب الله واحداً منهم فشاب رأسه من الحزن .. وأحدودب ظهره من الغم .. وذهب بصره من البكاء .. وابنه حي في دار الدنيا .. وأنا رأيت أبي وأخي وسبعة(٢) عشر من أهلي مقتولين صرعى فكيف ينفض حزني ويقل بكائي.

وسالت الدموع من عيني زيد ونزلت تلك الكلمات أشبه ما تكون بالسهام .. لتصيب ذلك القلب الصغير وتحمّله من الحزن والهم ما تعجز عن حمله الجبال الرواسي.

وأقبل على أبيه يريد أن يسأله ليقص عليه أحداث الأمس .. ولكن زين العابدين كان قد عاد إلى سجوده وغرق في مناجاته .. فتهيب أن يحدثه .. فأنسحب حزيناً منكسر البال .. خائر القوى.

* * *

(٢) ذكر أبو الفرج الأصبهاني في مقاتل الطالبين من قتل يوم الطف من ولد أبي طالب سوى من هو مختلف فيه اثنان وعشرون رجلاً _ [راجع المقاتل ص]

وخرج زيد في اليوم التالي مع أقرانه .. ولكنه لم يكن على عادته ..

عبد الله بن الحسن: يا زيد! .. يا زيد! ..

زيد بن علي: لبيك يا عبد الله ماذا تريد؟.

عبد الله: أخي ما بالك كاسف الوجه كثير الشرود. !! أهناك ما يشغلك؟

زيد بن علي: لقد سمعت بالأمس بعض كلام أبي لأحد غلمانه .. لقد كان يتكلم يا عبد الله والألم والحزن العميق يسيطر عليه. لقد رأيت أبي يبكي فما رأيت مثل بكاء الأمس.

عبد الله: عن ماذا كان يتكلم؟

زيد بن علي: لقد تحدث عن مصرع جدي وعمي وسبعة عشر من أهله .. وكنت أريد أن يفصل لي ويحدثني .. ولكني تهيبت أن أسأله.

عبد الله: وأنا يا زيد قد سمعت عن هذا وكم اتمنى أن أعرف ذلك بالتفصيل.

زيد بن علي: فما رأيك أن نذهب إلى عمتي فاطمة لعلها تقص علينا ما خفي عنا.؟

عبد الله: هيا يا زيد فأمي لا شك ستقص علينا كل شيء إن شاء الله.

وأقبلا على فاطمة بنت الحسين سلام الله عليها .. فطلبا منها وألحا عليها إلا ما حدثتهما عن تفصيل ما سمعوه من علي بن الحسين .. فجعلت تقص عليهما أحداث معركة كربلاء بالتفصيل وزيد ينتحب ويبكي مع كل حادثة تقصها عليهما.

الفصل الرابع

ازداد الإمام زيد قرباً من أبيه وجعل ينتهل من علمه .. ومعارفه حتى بلغ من العلم ما فاق به أقرانه.

دعاه أبوه زين العابدين (ع) في أحد الأيام وقد إجتمع إليه إخوانه .. فقال لزيد: اقرأ ما تحفظ من القرآن .. فقرأ .. ثم جعل يسأله في المعضلات فيجيبه زيد عن كل المسائل .. فقام إليه زين العابدين وقبله بين عينيه ثم دعا له.

وما إن أوشكت سنة ٩٥هـ على الانتهاء عندما بلغ زيد بن علي سن السادسة عشر من عمره .. فَقَدَ زيد أباه وبكت المدينة لفقدانه.

وانتقل زيد ليعيش مع أخيه محمد الباقر .. ويتزود من علمه.

إلى جانب ذلك فقد كان زيد -منذ نعومة أظفاره- يخرج إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليسمع

البقية الباقية من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والتابعين.

وكان الإمام زيد (ع) كثير العبادة يقوم الليل، ويصوم يوماً ويفطر آخر .. فاشتهر وذاع صيته في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو لا يزال في سن مبكر.

* * *

وبعد زمن من رحيل ذلك الأب الذي أحاطه برحمته وحنانه .. وفي إحدى الليالي أرسل محمد الباقر في طلب أخيه زيد بن علي(ع) .. فلما أتاه وهو جالس مع أصحابه أفسح له في المجلس وجعل يناقشه ويحاوره في بعض مسائل العلم فكان لا يسأله عن مسألة إلا ويجيبه ويزيده بعضاً مما عنده أو ما توصل إليه نظره في بعض مسائل العلم.

فجعل وجه محمد الباقر(ع) يتهلل .. ثم التفت إلى أحد أصحابه وقال:

يا أبا السدير هذا والله سيد بني هاشم .. إذا دعاكم

فأجيبوه وإذا استنصركم فانصروه.

ولما انصرف القوم عن مجلسه قرّب إليه أخاه زيداً ثم قال له:

- يا زيد لقد بلغت من العلم ما بلغت وأرى أنه قد آن لك أن تبحث لك عن زوجة صالحة تكون سكناً لك فما رأيك يا أخي؟

زيد: الرأي ما رأيت يا أخي.

محمد الباقر: إذا رأيت يا أخي أن أخطب لك ريطة بنت عمنا عبد الله بن محمد بن الحنفية؟ فقد بلغني من خلقها ودينها وحسنها ما أرجو أن يسرك.

* * *

وما هي إلا أيام حتى استعدت دور بني هاشم لإقامة مراسيم الزواج المبارك.

ولم يكن زيد بالرجل الذي تشغله ملاذ الحياة عن عبادته وطلبه للعلم فقد استقى ذلك وتربى عليه منذ

نعومة أظفاره .. فصار العلم بالنسبة إليه كالماء لا يُستغنى عنه.

وما هي إلا أيام من زفافه حتى أقبل على مجلس أخيه.

زيد: سلام من الله عليكم.

محمد الباقر: وعليك السلام يا زيد ما الذي أخرجك من عند عروسك ولم تكمل معها أسبوعاً؟ هل ساءك منها شيء؟

زيد: لا يا أخي فنعم المرأة هي .. لكنه أشكل عليّ بعض مسائل فرجوت أن أجدها في كتاب كان لأبي فقلت لعله عندك فأحببت أن أطلع عليه.

الإمام الباقر: أو في أيام عرسك تنشغل بالعلم؟!! عد يا زيد إلى عروسك فإذا انقضت أيام عرسك أرسلته إليك إن شاء الله.

زيد: الرأي ما رأيت يا أخي .. وعاد على الفور إلى داره.

* * *

كان الإمام زيد كثير التلاوة والتأمل في كتاب الله .. فجعل يبحث ويتأمل .. وكلما ازداد تأملاً للقرآن ازداد شغفاً وتعلقاً به لذلك قل خروجه إلى الناس وجلوسه إليهم .. فقد وجد في آيات الله له مؤنساً ورفيقاً فأخلص له الإنقطاع .. وانقطع عن الناس ثلاثة عشر سنة بقي فيها عاكفاً يتأمل في كتاب الله حتى عُرف بين الناس بحليف القرآن.

ولقد أتى أبو الجارود يسأل يوماً عن الإمام زيد (ع) في مجلس الإمام محمد الباقر (ع)..

أبو الجارود: أين أخوك زيد يا سيدي فمنذ زمن لم أره؟

محمد الباقر: والله يا أبا الجارود لقد اشتد شوقي لسماع حديثه والجلوس إليه .. ولكن والله ما فينا من يتجاسر أن يقطع عليه خلوته .. فقد انقطع للتأمل في كتاب الله عز وجل فإنه ليقف مع الآية يرددها

ويتأمل معانيها حتى يخر مغشياً عليه .. فهو بحق والله حليف القرآن.

وما هي إلا لحظات حتى دخل الإمام زيد على أخيه الإمام محمد الباقر فبادره قائلاً: ألم تكن يا زيد سألتني أن أعطيك كتاب أبيك؟

زيد: بلى يا أخي..!.

محمد الباقر: والله ما منعني أن أبعث به إليك إلا النسيان.

زيد: جزاك الله عني خيراً يا أخي .. لولا أني وجدت ما أغناني عنه لذكرتك.

محمد الباقر: أتستغني عن كتاب أبيك..؟!

زيد: نعم .. إستغنيت عنه بكتاب الله.

محمد الباقر: أفأسألك عما فيه ..؟

زيد: سل يا أخي عما بدا لك .. فأنا أعلم أنك أحرص الناس على أن أكون أكثر الناس علماً.

فقال الإمام محمد الباقر لولده جعفر:

- علي بكتاب أبي يا جعفر.

ثم أقبل يسأل زيداً مسألة مسألة حتى فرغ من آخر مسألة في الكتاب .. ثم تبسم في وجهه وضمه إلى صدره وقال:

- بارك الله فيك يا أخي .. والله لقد أعطاك الله علماً غزيراً وفهما وبلاغة فمتى تخرج علمك إلى الناس.؟ فقد طالت خلوتك .. !

زيد: والله يا أخي ما أنا بمعزل عن أحوال الناس .. وإن انعزلت عن الناس .. فإن نياط قلبي توشك أن تتمزق حسرة على أحوال أمة جدي. ولكن ما ظنك برجل لا أمر له ولا نهي؟!

* * *

ودخل على الإمام زيد وفد من همدان أرادوا الحج ..

فأحبوا أن يسلموا على آل رسول الله .. فشكوا سوء حالهم إلى زيد بن علي عليه السلام وحدثوه بما يقع عليهم من الظلم فأنشد قائلاً:

متى تطلب المال الممنع بالقنا تعش ماجداً أو تخترمك

متى تجمع القلب الذكي وصارما وانفا حمياً تجتنبك المظالم

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم فهل أنا يا آل همدان ظالم

خرج القوم وقد تعلقت قلوبهم بزيد بن علي واشتد حبهم له فقد سمعوا من كلامه ما أثلج صدورهم وأعاد إليهم الأمل في الخلاص من هذا الوضع الفاسد.

* * *

ودخل عليه جعفر ابن أخيه يوماً ووجد بين يديه كتاباً يخطه فقال: ما هذا يا عماه.؟!

زيد بن علي: هذا يا أبن أخي كتاب جمعت فيه كل لفظ غريب في القرآن .. وذكرت معناه أرجو من الله أن يكتب لي به أجراً وينفع الله به أمة محمد صلى الله عليه

وآله وسلم.

جعفر الصادق: وماذا أسميته يا عماه ..؟

زيد: أسميته (تفسير غريب القرآن)..!

* * *

وما إن بلغ الإمام زيد سن الخامسة والعشرين حتى صار أخوه محمد الباقر لا يقطع في رأي إلا ويستشيره ويعمل برأيه .. وكان يحث أصحابه على طاعته ويقول-كلما رآه: هذا والله سيد بني هاشم.

ولا يكاد يركب زيد على دابته حتى يسرع جعفر بن محمد ليمسك لعمه زيد دابته.

ولما بلغ سن الخامسة والثلاثين شاء الله أن يفقد أخاه الأكبر محمد الباقر سنة ١١٤هـ .. فأصبح بعد أخيه سيد بني هاشم وعميدهم .. وموضع استشارتهم وصار محط الأنظار والأصدقاء والموالين .. يرقبونه معجبين بتلك الشخصية الحسينية الفذة .. صاحب النظر البعيد والرأي

السديد .. فأصحاب الفقه وطلبته يرون فيه البحر الذي لا ينفد .. وطلبة علوم القرآن يدركون أنه وحيد عصره فيتسابقون في الإغتراف من معين علمه .. وأهل الزهد والتمسك لا يعدلون به أحداً.

الفصل الخامس

وهناك في قصر الخلافة الأموية في (الرصافة) كان الخليفة هشام بن عبد الملك يتابع أخبار مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أولاً بأول..

وأقبل عليه والي المدينة مسلّماً عليهً وداعياً له بطول البقاء والصحة ..

فأشار هشام إلى كل من في المجلس بالانصراف ثم توجه بالحديث إلى والي المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث.

هشام: ما أخبار ذلك الفتى الهاشمي الذي صارت أخباره تملأ الآفاق؟

خالد: من تقصد يا مولاي ..؟! محمد بن علي بن الحسين الملقب بالباقر؟

هشام: ما قصدت هذا ..! قصدت أخاه زيداً .. ألم تسمع

عنه وهو بجوارك في المدينة ونحن هنا في أطراف الشام ونعلم كل أخباره؟

خالد: لا عليك يا مولاي لا تشغل نفسك به فقد عكف على العلم والعبادة .. وما أراه يفكر في شيء سوى ذلك.

هشام -في صوت حاد: يبدو عليك أنك لم تعرف أهل هذا البيت؟ .. اسمع يا خالد إجعل من يحصي عليه أنفاسه .. ويراقبه ليلاً ونهاراً .. وارقب كل من يأتي إليه أو يخرج من عنده .. وإن استطعت أن تجد عليه مدخلاً فلا تتورع في ذلك .. فإني أعلم أن نفسه تنازعه الخلافة .. وإذا أراد أن يخرج من المدينة فأمنعه .. وحذار أن تغفل عنه طرفة عين.

خالد: أمرك يا مولاي .. والله لا تجد إلا ما يسرك.

وانطلق خالد ليعود إلى المدينة ولا شيء يشغل ذهنه إلا إرضاء هشام الذي يعلم أن انحصار رضاه في إيذاء آل بيت

النبوة وبالذات زيد بن علي عليه السلام.

* * *

كان الشيء الذي ينغص على الإمام زيد حياته.. ويجعله لا يطيق الحياة هو الوضع الذي تعيشه الأمة المحمدية.

فأهل البدع والأهواء يصولون ويجولون في البلاد الإسلامية لا يجدون من يرد عليهم بدعهم .. يلبِّسون على العوام .. ويحرفون الدين .. ولا يكاد يمر عام حتى تظهر فرقة جديدة ومذهب جديد .. فانشغل العلماء والفقهاء بالجدل فيما بينهم ونسوا حال الأمة .. حتى أصبحت المساجد مجالس خصام وجدل.

فجعل الإمام زيد يتتبع أخبار الأقطار الإسلامية .. ويتلمس أحوال الناس.

وبينما هو جالس في داره بالمدينة إذ بذلك الزائر الذي تعوَّد أن يحل ضيفاً على الإمام في كل سنة منذ عدة سنوات يطرق عليه الباب.

الإمام زيد: من الطارق..!؟

أبو خالد: افتح يا سيدي فأنا أبو خالد الواسطي.

تهلل وجه الإمام .. وأقبل يفتح الباب .. ويعانق أبا خالد.

زيد: أهلاً بك تفضل .. تفضل .. لقد اشتقنا إليك يا أبا خالد.

أبو خالد: والله لشوقي إليكم أعظم .. ولولا مؤنة الطريق وكثرة العيال ما فارقتكم لحظة.

وما كاد أبو خالد يستقر في مجلسه حتى بادره الإمام بالسؤال قائلاً:

- كيف تركت الناس في العراق يا أبا خالد؟

أبو خالد- وقد بدت علامات الحزن على وجهه: عن ماذا تريد أن أحدثك عنه يا أبا الحسين؟ أعن ذلك العداء والعصبية التي قسمت الناس شيعاً وأحزاباً؟ أم عن ظلم وتجبر الولاة الذي ما ترك بيتاً إلا ودخله؟

أم عن تخاذل علماء الأمة عن إيضاح معالم الدين؟ فكم من عالم يداهن الأمراء والولاة على حساب الدين!!

وفي تلك اللحظة طُرق الباب بقوة وجعل رجل ينادي بصوت عال: افتح يا زيد وإلا كسرنا الباب.

اتجه الإمام إلى الباب في عزم وصلابة بدت واضحة على وجهه.

الإمام زيد: من الرجل ..؟!

- أنا خالد بن عبد الملك بن الحارث والي المدينة.

فتح الإمام الباب .. ودخل الوالي.

الإمام: ماذا تريد يا خالد ما الذي أتى بك في مثل هذه الساعة؟

خالد: اسمع يا زيد .. لا تظن أني غافل عنك وعن هذا الأعرابي الجلف الذي يأتيك من أطراف العراق .. فحذارِ أن أرى منك ما يسوء أمير المؤمنين.

ثم خرج الوالي من الدار في تبجح وغطرسة لا مثيل لها .. واغلق الإمام الباب .. وجلس في مكانه ومسحة من الإطمئنان والسكون بادية على وجهه .. وكأن شيئاً لم يحدث .. فقد أصبح مثل هذا المشهد عند الإمام زيد وسائر أهل البيت (عليهم السلام) طبيعياً قد ألفوه وتعودوا عليه منذ زمن.

الإمام زيد: المعذرة يا أبا خالد .. فو الله ما تركوا لنا حرمة إلا وانتهكوها .. حتى ديارنا أصبحوا ينتهكون حرمها متى ما شاءوا .. ولكن نحتسب ذلك عند الله.

أبو خالد: لا حاجة للإعتذر يا سيدي .. فقد إعتدنا رؤية مثل هذه المشاهد مراراً .. فما تركوا بيتاً إلا وانتهكوا حرمته .. فإذا كانوا يطرقون أبوابكم فأبوابنا تكسر قبل أن تطرق.

الإمام زيد: الله أعلم إلى أين يؤول حال هذه الأمة؟ .. ولكن لا بد من مخرج فالله أرحم من أن يترك هذه الأمة بأسرها نهباً لهذه الثلة الفاسدة .. فأكمل حديثك يا

أبا خالد .. فأنا في شوق لسماع الأخبار عن العراق وعلماء العراق.

أبو خالد: والله يا سيدي .. لو رأيت كيف أصبحت أحوال طلاب العلم .. أولئك الذين اضطربت عليهم الأقوال والآراء .. فالحلقة الواحدة أصبحت حلقات .. واشتد النزاع والخلاف حتى صيروا الحليم العاقل حيراناً لا يعرف الحق من الباطل .. ولا يدري مع من يكون ..؟!

الإمام زيد: فما أخبار الحسن البصري؟

أبو خالد: لقد اعتزل حلقته بعض طلابه .. بعد أن احتد النقاش فيما بينهم .. وأصبح لهم حلقة يتزعمها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد..

والأهم من ذلك يا سيدي أن الخلافات تزداد كل يوم وتتجاوز طبقات العلماء إلى طبقة العوام .. وهناك من يستغل مثل هذا الخلاف ويشكك حتى في دين الإسلام.

الإمام زيد: ولكن أخبرني ما دور ولاة الأمر؟ ألم يحاولوا أن

يوقفوا أولئك المشككين عند حدودهم؟

أبو خالد: آه يا سيدي والله لأشد ما أخاف منه أن يكون لهم يد في تأجيج نار الخلاف .. فهم بهذا يضمنون انشغال علماء الأمة بهذه الأمور عن المطالبة بإزالة المظالم التي أثقلت كاهل الأمة.

الإمام زيد: والله ما ذلك بغريب عليهم .. فَمنْ سَفَك الدماء وانتهك الحرم ليس بغريب عليه أن يفعل أي شيء .. ولكن لا بد أن يكون هناك حل فقد صار الأمر لا يطاق .. فما فائدة صلاة وصيام وخشوع وتذلل .. وأمة محمد تسير إلى الهاوية ونحن نقف موقف المتفرج .. فماذا ترى يا أبا خالد ألا ترى أن الحل..؟

أبو خالد -مقاطعاً-: لي رأي إن أذنت لي يا سيدي.

الإمام زيد: تفضل يا أبا خالد .. فأنت أعلم بما في العراق وبما يصلحه.

أبو خالد: لعل الناس يا سيدي لو وجدوا شخصاً يعترف له الجميع بالفضل والعلم يفصل بينهم فيما اختلفوا فيه لجمع الله على يديه كلمتهم.

الإمام زيد: ومن ترى ذلك الشخص؟

أبو خالد: وهل ترى أن هناك غيرك يا سيدي؟

الإمام زيد: وهل ترى أن مثلي يمكنه بنو أمية من التنقل في البلاد وقد صرت لا أخرج من بابي إلا وأعين الرقباء والجواسيس ترقبني من كل جانب .. إن الأمر صعب يا أبا خالد .. والله لقد صرت أتحرج من الرجل أقف معه على قارعة الطريق مخافة أن يؤذوه بسبب حديثه معي.

أبو خالد: إنك لن تعدم طريقاً .. وإذا خرجت من المدينة فوالي العراق خالد القسري هو إليكم أميل يا سيدي ولا أراه يتعرض لكم بأذى.

الإمام زيد: سننظر .. فأسأل الله أن يختار ما فيه خير هذه الأمة.

الفصل السادس

(١)

وفي ذات مساء كان يحيى بن زيد عليهما السلام يحث الخطى متنقلاً بين دور بني هاشم .. فطرق باب جعفر وعبد الله أبناء الحسن بن الحسن، واتجه إلى باب محمد بن عمر بن علي .. ثم إلى دار داود بن علي بن عبد الله بن العباس، وجعل يهمس في أذن كل واحد منهم بكلمات ثم يذهب ومن ثم عاد إلى دار أبيه.

الإمام زيد: ماذا فعلت يا يحيى؟

يحيى: بلغتهم يا أبي والجميع يقبل إليك الساعة.

وما هي إلا لحظات حتى دخل أربعة من بني هاشم إلى منـزل الإمام .. والحيرة والتخوف بادية على وجوههم فما كادوا يستقرون في مجالسهم حتى قال جعفر بن الحسن:

- خيراً يا زيد ما الذي دعوتنا له في مثل هذه الساعة من الليل؟

الإمام: خيراً إن شاء الله يا ابن العم .. والله ما دعوتكم إلا لما فيه خير دينكم ودنياكم.

عبد الله بن الحسن: فصّل يا زيد يرحمك الله .. فوالله لن ترى منا إلا ما يسرك إن شاء الله .. فما عهدناك إلا إلى الخير داعياً.

الإمام: يا بني هاشم والله إني لا أعلم أحداً أوفر حظاً من حظكم .. فقد خصكم الله أن تكونوا ذرية نبيه وقرناء كتابه .. وها هو كتاب الله لا يعمل به .. وها هي سنة رسول الله يزاد فيها وينقص .. ونحن في المدينة ليس فينا من يأمر بمعروف وينهى عن منكر .. وقد أتاني بعض من أعرف إخلاصه ودينه من أهل العراق .. يدعوني للخروج إلى العراق والإلتقاء بعلمائها لعل الله يجمع شتاتهم بنا .. وأنا أرى أن نخرج

إلى العراق لزيارة قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام والحسين بن علي عليه السلام وأصحابهم .. ومحاورة علماء العراقين والإصلاح ما استطعنا .. فماذا تقولون؟

جعفر بن الحسن: حباً وكرامة يا ابن العم .. فامهلنا حتى نعد العدة للسفر فأنت تعلم حالنا.

* * *

وما هي إلا أيام حتى وصلوا إلى حدود العراق .. فتسابق أهل العلم والفضل إلى استقبالهم والإحتفاء بهم.

وانتقل الخبر إلى خالد القسري في دار الإمارة .. فخرج في موكب مهيب يسارع في خطاه والبشر باد على محياه والسرور يملأ جوانحه .. وأقبل نحو الجامع الأعظم فإذا المسجد قد اكتض بالناس، فالعبّاد، والزهاد، وعلماء الدين، ووجهاء أهل العراق، وعامة الناس .. الكل يريد أن يكون أول مستقبل لذلك الوفد المقبل من مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

إنه وفد فريد من نوعه فمنذ عشرات السنين ومنذ أن

حدثت تلك الحادثة المشؤومة في كربلاء وأهل البيت يستوحشون من دخول العراق.

كان المسجد رغم كثرة الناس يسوده هدوء غريب .. فهنا شخص يتكلم .. الكل قد أصغى إليه بكل جوارحه حتى أصبح المتأمل والمنصت لا يسمع من كلام الناس إلا همساً كله إعجاب بذلك الشخص المتكلم .. ولا يكاد السائل يتم كلامه حتى يسمع الإجابة عليها بأبسط عبارة وأبلغ معنى.

وعندما اقترب وفد الأمير تصايح الناس: الأمير .. الأمير ..

طرقت هذه الكلمة مسامع ذلك الوفد المدني فرجوا من الله أن يكون طارق خير ..

وانشقت الصفوف وتقدم الأمير .. كانت قلوب الناس تضرب كالطبول وحبست الأنفاس .. الكل كان يدرك العداء الذي يكنه بنو أمية لأهل هذا البيت .. فماذا يريد الأمير؟

وأقبل خالد القسري على الإمام زيد يعتنقه، ويقبل رأسه، ويقسم عليه ألا ينزل إلا في دار الإمارة .. فتغير المشهد وانقلب الخوف إلى تكبيرة مدوية انطلقت من أعماق القلوب حتى سمع لها صدى خارج المسجد.

* * *

بقي الإمام ومن معه ضيوفاً على خالد القسري أياماً .. ومع إشراقة كل صباح كان الإمام ومن معه يخالطون العلماء والفقهاء يحاولون أن يقرِّبوا بين وجهات النظر ويصلحون فيما بينهم يعظون من يحتاج إلى الموعظة ويناظرون من يريد المناظرة.

والتقى الإمام زيد بواصل بن عطاء وجالسه وناظره في بعض المسائل .. كان الجميع يتقبلون من الإمام ويأنسون إلى آرائه.

ولكن كانت هناك عقبة تقف أمام كل هذه الجهود فقد كان هناك من يغذي هذا الخلاف .. ولقد استطاعت

السلطات الأموية أن تبث جواسيسها وسمومها في حلقات العلم ومجالس العلماء .. فكان هناك من علماء السلطة من يشتري الضمائر ويجعل من الإختلافات الدنيوية اختلافات دينية.

فاشتد حزن الإمام وقرر مع أصحابه العودة إلى المدينة.

فشكر خالد على حسن استقباله وضيافته واستعد للرحيل مع أصحابه .. وما هي إلا أيام حتى وصلوا إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ليأنسوا من جديد بمجاورته.

(٢)

كانت الأخبار تقطع المسافات ما بين العراق والشام على أجنحة الحمام وظهور الخيول لتسابق الريح .. وتطرق سمع الخليفة الأموي فتكون أشبه بالعواصف واشد من وقع الصواعق .. فلا يكاد الخليفة يجد راحة أو لذة في مطعم

أو مشرب.

وأصبح الخليفة متوتر الأعصاب يزمجر ويتوعد .. يسأل عن أحوال العراق فلا يكاد يسمعها حتى يطير لُبُّه ولا يستقر به مجلسه .. يبيت مسهداً لا يجد النوم إلى عينه طريقاً .. فيهرب إلى الشراب حتى لا يدري أين هو .. ولكنه ما إن يفيق حتى يعاوده الحزن والغم.

وبينما هو على مثل هذه الحالة إذ وصل إليه رسول من العراق يخبره برحيل الإمام زيد وتوجهه نحو المدينة.

تنفس هشام الصعداء واسترخى في مجلسه .. وجعل يفكر بجدية ويحاور وزراءه فأشاروا عليه بعزل خالد القسري.

هشام: ومن ترون الرجل الذي يستطيع أن يحزم أمر العراق .. أريد رجلاً أميل إلى السيف منه إلى العفو .. أريد رجلاً يسمعني أنين أهل العراق.

جالت الأذهان وتعددت الآراء .. فمن أين لهشام

بحجاج آخر يذيق أهل العراق من الذل والمهانة ألواناً؟ .. كان هناك شخص واحد هو الذي يمكن أن يقوم بهذا الدور على أكمل وجه .. وقد حظر فجأة على ذهن الخليفة..

هشام: وجدت الرجل المناسب .. ليس لها إلا يوسف بن عمر.

وفي الحال أمر هشام كاتبه أن يكتب أمراً بتولية يوسف بن عمر وعزل خالد القسري وسجنه .. ثم قال له:

- اكتب إلى والي المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث بأن يحضر إلينا عند وصول كتابي هذا إليه.

وما هي إلا أيام قلائل حتى أقبل خالد بن عبد الملك واستأذن في الدخول على هشام .. فأذن له..

خالد: السلام على أمير المؤمنين هشام..

وقبل أن يكمل خالد سلامه بادره الخليفة بالحديث قائلاً:

- اسمع يا خالد لقد علمت أني لم أوليك المدينة طلباً لرضاك أو صلة لرحمك .. ما وليتك أمر المدينة إلا لتكون صارماً مع آل أبي طالب تحصي عليهم أنفاسهم ..

وتعمل على شق عصاهم .. وأن تذيقهم من الذل ألواناً فإذا بك تعطيهم حرية التنقل والإلتقاء بمن شاؤوا.

وبصوت أشبه بفحيح الحيات تجسد فيه الحقد الأموي في أبغض صوره .. أكمل هشام كلامه قائلاً:

- اسمع يا خالد أريد أن أسمع نحيب بني هاشم من هنا .. أريد أن تشق عصاهم فلا تترك لهم وقتاً للإجتماع لا أريد أن أسمع أن أولئك الخمسة الذين ذهبوا إلى العراق قد اجتمعوا .. وإن استطعت أن توغر صورهم على بعضهم فافعل .. انصرف يا خالد .. واحذر أن تصير إلى ما صار إليه خالد القسري.

خالد: أمرك يا مولاي ..

وبعد أن غادر خالد قصر الخلافة بدأ من ساعته يعد نفسه للسفر.

الفصل السابع

(١)

لم يكد الوضع يستقر بالإمام حتى جعل يستعيد أحداث رحلة الأمس .. تلك الرحلة التي إطّلَع من خلالها على وضع العراق عن قرب .. ولمس ذلك الواقع المأساوي الذي تعيشه الأمة المسلمة.

ورفع نظره إلى ابن عمه عبد الله بن الحسن ثم قال:

- ماذا ترى أن يكون الحل يا عبد الله؟ هل نترك الناس على ما هم عليه؟ أليس فينا من يغار على مبادئ الإسلام ..؟!

عبد الله: يا ابن العم .. والله لقد التبس عليّ الأمر .. فماذا يمكن أن نفعل إذا كان ولاة الأمر ومَنْ بأيديهم الحل والعقد .. هم منبع الفساد ودعاته؟!

الإمام زيد: إني أنوي أن أكتب رسالة إلى علماء الأمة أذكرهم فيها بواجبهم نحو دينهم وأمتهم لعل الله أن يهديهم بها ويعيدهم إلى جادة الطريق .. فإذا صلحت هذه الطبقة من الأمة أصلح الله من تحتها من طلبة العلم وعامة الناس.

عبد الله: فبادر إلى هذا .. فقد بلغني أن هشاماً عزل خالد القسري وسجنه عقاباً له على استقباله لنا .. واخبروني أنه استدعى والي المدينة وأخاف أن يضيقوا الخناق علينا فلا نجد من نرسلها معه.

زيد: أكتبها إن شاء الله الليلة ..

* * *

وما هي إلا أيام حتى وصل خالد بن عبد الملك وهو يزمجر ويتوعد .. واستدعى وجهاء أهل البيت .. فجعل يتوعدهم ويتطاول عليهم وينقص في حقهم ولكن الجميع كان يدرك قصده .. فكان يحب أن يستثيرهم فيجد مدخلاً

عليهم .. فحاولوا أن يقابلوا اساءته بالحلم والصمت.

ولما لم تُجْدِ طريقة الإستفزاز بدأ والي المدينة يفكر في طريقة وأسلوب آخر يمكن أن يستثيرهم .. فبث حولهم الجواسيس والرقباء يحصون عليهم أفعالهم وأقوالهم وجعل الإلتقاء فيما بينهم جريمة.

ثم بث المنافقين لإثارة الخلاف والنـزاع فيما بينهم .. وخلال هذه الفترة ثار نزاع بين جعفر بن الحسن بن الحسن وزيد بن علي حول ميراث الحسين عليه السلام. فما كاد خالد بن عبد الملك يسمع بهذا الخبر حتى صار يتتبع أخبارهم .. ويحشد لها الناس من أجل تشويه سمعة بني هاشم .. تلك السلالة التي كان قد ذاع صيتها واشتهرت تضحيات أبنائها حتى أصبحوا مضرب الأمثال في الزهد والعبادة والعلم.

وكتب بشأن هذا النـزاع إلى هشام فاشتد فرحه .. وكتب إلى والي المدينة: أن اشتر منهم ذلك الميراث المتنازع عليه وضاعف ثمنه حتى يشتد تمسك طرفي النـزاع

بذلك الميراث.

ولم يصل جواب الخليفة إلى والي المدينة إلا وقد توفى جعفر بن الحسن.

وأعدّ الوالي مجلسه وجمع فيه العلماء والوجهاء.. وأمر أمير شرطته أن يستدعي زيد بن علي وابن عمه عبد الله بن الحسن بن الحسن.

وبعد أن وصلا إلى مجلس الوالي أجلسهما بين يديه ثم قال:

- اسمع يا زيد وأنت يا عبد الله إن أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك قد علم بقطعة الأرض التي كانت لعلي بن أبي طالب جدكما .. فأمرني أن أشتريها له .. ولأنكم أنتم أصحاب الملك فقد أمرني أن أضاعف ثمنها عشر مرات صلة للرحم ولمنـزلتكم من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهذا ثمنها مائة ألف دينار فأيكم صاحب الحق في هذه الأرض فأعطيه.

وهنا تبادل عبد الله بن الحسن النظرات مع الإمام زيد وتقدم الإمام زيد إلى خالد وقال له: ولأي شيء جمعت علماء ووجهاء المدينة يا خالد؟!

خالد: ليكونوا شهوداً على هذا البيع.

زيد: أو ما علمت أن الشهادة على نقل الملك تثبت بشاهدين؟! بل أردت أن تجعلنا أضحوكة وسخرية للأعراب.

خالد: دعنا من هذا يا زيد وافسح لابن عمك مجالاً للتكلم فلست صاحب الحق وحدك.

زيد: اسمع يا خالد الأرض أرض ابن عمي عبد الله بن الحسن..

ثم التفت الإمام زيد إلى ابن عمه وقال له: قم يا عبد الله واستلم ثمنها.

تقدم عبد الله بن الحسن واستلم المال ثم أقبل على الإمام زيد ووضع المال بين يديه .. وقال له: خذه يا

ابن العم .. فالمال مالك وأنت صاحب الحق فيه.

وفي هذه اللحظات وأمام هذا المنظر كبَّر الحاضرون وارتفعت الأصوات: {اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}... فاستشاط خالد غضباً واحمر لونه وصاح فيهم: اخرجا لا بارك الله لكما فيه.

وانفض المجلس وكل من فيه أكثر حباً وإعجاباً بالإمام وابن عمه عبد الله بن الحسن.

* * *

وبعد هذه الحادثة التي أصبحت مدار حديث أهل المدينة بلغ حقد خالد على أهل البيت النهاية .. فجعل لا يترك فرصة يمكن أن ينال من أهل البيت فيها إلا فعل وضيَّق عليهم الخاق حتى عزلهم عن الناس ومنعهم من الإلتقاء والإجتماع .. فضاق صدر الإمام زيد عليه السلام ولم يستطع أن يحتمل هذا الوضع فطبعه يأبى الذل وقرر أن يسافر إلى الشام ويشكو والي المدينة خالد بن عبد الله

إلى هشام لعله يجد عنده متنفساً من هذا الوضع الذي فرضه عليه وعلى أهل بيته.

فخرج الإمام زيد من المدينة متخفياً حتى لا يتمكن خالد من منعه إن أراد ذلك واتجه إلى مقر الخلافة الأموية في دمشق .. وبمجرد وصوله حاول أن يستأذن للدخول على هشام ولكن الرفض والتجاهل هو الرد الذي اختاره هشام .. فحاول أن يستخدم أسلوباً آخر .. فكتب رسالة إلى هشام بث إليه شكواه وشكوى أهل بيته من ظلم خالد بن عبد الملك والي المدينة .. فكان الجواب نهاية نفس الرسالة: (عد يا زيد من حيث أتيت).

فأقسم الإمام زيد أنه لا يعود حتى يجد حلاً فالكل في المدينة كان ينتظر الفرج المقبل مع الإمام زيد فكيف يعود إليهم صفر اليدين. وما كان الإمام ليضيع وقته على باب هشام ينتظر منه الرحمة .. فقد اتجه إلى مسجد

دمشق وفتح درساً في تفسير القرآن الكريم.

(٢)

كان رقباء وجواسيس هشام يتتبعون الإمام وينقلون إلى هشام تحركات زيد بن علي أولاً بأول.

قائد الشرطة: مولاي أرأيت ذلك الهاشمي الذي أمرتنا بمتابعته.

هشام: ماذا فعل هذا الرجل؟ .. تكلم بسرعة.

قائد الشرطة: لقد جلس في المسجد يحدث الناس ويعظهم منذ عدة أيام.. وفي كل يوم يزداد الناس كثافة من حوله.

احمرَّ وجه هشام وبسرعة خاطفة انتزع جسده من كرسي الخلافة ليطوق عنق قائد الشرطة بكلتا يديه ويصرخ بصوت أشبه بالصواعق:

- كيف أيها الأحمق؟ لماذا لم تخبرني بذلك من أول يوم..؟ ألم يَكْفِ زيداً أن يفسد علينا أهل المدينة وأهل العراق حتى أتى ليفسد أهل الشام؟! والله لأقطعن رأسه وأجعله طعاماً للطيور.

سكت كل من في المجلس لشدة الخوف .. فقد تحول الخليفة إلى وحش كاسر.

وبنظرة غاضبة إلتفت هشام إلى وزرائه وجلسائه وقال: أشيروا عليّ أيها القوم في أمر هذا الفاسق .. فكأني به لن يكف عن مساعيه الخبيثة حتى يجردني من الخلافة.

فقام أحد الوزراء فقال: يا سيدي إن أذن لي مولاي في الكلام فأنا أشير عليك.

هشام: تكلم ..

الوزير: يا مولاي قد بلغني أن بعض العلماء ترك حلقة درسه وطلابه واتجه ليتتلمذ على يد زيد .. وإنك إن قتلت زيداً أو سجنته في هذه الأيام بعد أن عرفه أهل

الشام، وعرفوا علمه، وصيروه شيخاً يتحلقون حوله .. استوحش منك أهل الشام وكثر الكلام وكثرت الأسئلة ولن يعدموا من يجيب عليهم .. وفي ذلك والله تفرق أهل الشام وهم والله سيفك الذي تضرب به من تشاء.

هشام: فما هو الرأي أيها الوزير ..؟

الوزير: أرى أن تجمع العلماء وتختار من أوساطهم أكثرهم علماً وأسرعهم جواباً .. وأقواهم حجة .. فإذا جلس زيد في مجلسه واجتمع الناس من حوله حاجج زيداً في أن الحق مع الكثرة وأن يد الله مع الجماعة .. فإن أفحمه بين رواد حلقته .. سقط في أعينهم .. فإذا أردت به شيئاً بعد ذلك هان عليهم الأمر.

هشام: أحسنت .. الرأي ما رأيت أيها الوزير..

* * *

وما هي إلا أيام حتى ازدحم مجلس هشام بفطاحلة الشام وعلماء البلاط .. فجعل يختبرهم واحداً واحداً..

فبرز في أوساطهم رجل خرست لبلاغته وقوة حجته الألسن فأشرق وجه الخليفة .. وقا ل له:

- أنت من سيخرس زيداً ويجعل منه أضحوكة لأهل الشام.

فدخل علماء أهل الشام على الإمام زيد عليه السلام وقد حف به الناس من كل جانب .. وتقدم ذلك الرجل في زهو وثقة .. ثم قال:

- يا زيد .. أجمع علماء أهل الشام على أن يد الله مع الجماعة .. وأن أهل الجماعة حجة الله على خلقه وأن أهل القلة هم أهل البدعة.

فنظر إليهم الإمام زيد وحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله ثم تكلم بكلام ما تكلم بأبلغ منه قرشي ولا عربي وأثبت من كتاب الله أن الله ما ذكر القلة في كتابه إلا مدحهم ولا ذكر الكثرة إلا ذمهم واثبت أن القليل في الطاعة هم أهل الجماعة وأن الكثير في المعصية هم أهل البدعة؟

فبُهت الشامي وخرج هو ومن معه يجرون أذيال الهزيمة وبقي الناس كأن على رؤوسهم الطير لشدة الذهول.

فما كادوا يتجاوزون باب المسجد حتى التفتوا إلى صاحبهم يسبونه ويشتمونه يقولون: فعل الله بك وفعل .. زعمت أن لا تدع له حجة إلا كسرتها فخرست ولم تنطق. ..!

فأجابهم قائلاً: ويلكم كيف أكلم رجلاً إنما حاججني بكتاب الله فهل ترون أن أرد كلام الله؟

وتفرقت جموعهم وكل واحد منهم يتهم الآخر ويحمِّله أسباب هذه الهزيمة النكراء.

وبلغ الخبر مجلس الخليفة فاغتم للأمر .. فقد ازداد زيد بهذا الموقف رفعة وسمواً في قلوب الخاصة والعامة .. فجمع هشام خاصته ليشاورهم في الأمر.

هشام: إن استمر زيد على مثل هذا الأمر أفسد علينا أهل الشام وصيرهم على مثل رأيه فلا بد من حل .. فقد

نغص عليّ وجود زيد في الشام حياتي فصرت لا أجد لذة في شيء .. أعتقد أنه لا بد من مقابلته والإستماع إلى شكواه .. لعله بعد ذلك يعود من حيث أتى .. ولكن والله لأجعلنه يكره اليوم الذي يدخل مجلسي فيه.

ثم التفت إلى حاشيته وقال:

- اسمعوا يا قوم أريد منكم إذا دخل زيد أن يستقر كل منكم مكانه يتكلم ويضحك مع من يجاوره فلا يدري زيد أين يجلس إلا أن يجلس بين الأحذية فذلك مكانه الذي يليق به.

الوزير: أحسنت يا مولاي ذلك هو الرأي فمثل زيد لا يجدي معه سوى السخرية والقسوة.

هشام: والله لأحجمنه في هذا اليوم وليعلم أني ابن حرة وهو إبن أمة وما بين الحرة والأمة فرق يعلمه حتى صبيان العرب .. يا قائد الشرطة .. أرسل في طلب

زيد بن علي يأتينا الساعة.

فلما دخل الإمام زيد ألقى عليهم السلام فجعل أصحاب هشام يتضاحكون ويتشاغلون .. فرفع الإمام زيد(ع) صوته وقال: أوصيك يا هشام بتقوى الله..

فصمت المجلس فجأة والتفت هشام إلى الإمام زيد(ع) في غرور واستهتار لا مثيل له

هشام: أمثلك يا زيد يوصيني أنا بتقوى الله؟

الإمام زيد: ليس في عباد الله أحد دون أن يُوصِي بتقوى الله ولا فوق أن يُوصَى بتقوى الله.

هشام: أنت زيد المؤمل للخلافة الراجي لها.! وما أنت والخلافة لا أم لك؟ وأنت ابن أمة!!

زيد: لا أعرف أحداً هو أعظم منـزلة عند الله من نبي بعثه الله تعالى وهو ابن أمة -إسماعيل بن إبراهيم- وما يقصرك برجل أبوه رسول الله وهو ابن علي بن

أبي طالب.

فوثب هشام من مجلسه .. ووثب أهل الشام .. ونادى على قائد الشرطة: لا يبيتن هذا في معسكري الليلة؟!

وخرج الإمام زيد عليه السلام وهو يقول:

((**ما كره قومٌ قط حرَّ السيوفِ إلا ذلوا**)).

وخرج زيد بن علي من مجلس الخليفة وقد اشتد عليه غضب هشام ويئس من أن ينال منه .. فشخصية زيد بلغت المنتهى في العلم والفصاحة وقوة الحجة.

ومما زاد الإمام قوة في نفسه، ومتانة ومهابة في قلوب أعدائه، إيمانه بعدالة القضية التي يناضل من أجلها إلى جانب علاقته القوية بالله سبحانه وتعالى .. ولذلك أخفقت كل محاولات هشام وزبانيته في إهانة الإمام زيد أو الحط من شأنه.

* * *

واستدعى هشام -للمرة الثالثة- حاشيته وقد إزداد

الأمر سوءاً وأصبح هشام في حالة من التوتر فقد جعلته تلك المقابلة يستشعر قوة وصلابة خصمه ووضع نفسه في موضع المقارنة مع شخصية الإمام زيد فرجحت كفة الإمام وطاشت كفة هشام.

هشام: لا بد من حل نتخلص به من زيد بن علي فلا أريد أن أرى وجهه مرة ثانية.

الوزير: يا سيدي إني أرى أن نسجن زيد بن علي إلى أن نجد طريقاً نتخلص بها منه.

هشام: أخاف أن يثير ذلك الناس علينا وبالذات العلماء الذين كثر اتصالهم به في هذه الفترة.

الوزير: يا سيدي هيبة السلطان ستخرس الألسن ولن يطول سجنه فستجد حلاً تتخلص به من زيد وشرّه.

هشام: إذاً فليسجن زيد حتى نجد طريقة يرحل بها من الشام.

وانتقل زيد إلى سجون هشام .. وبقي مدة من الزمن يجالس السجناء ويحادثهم، وما هي إلا أيام حتى تحول ذلك السجن إلى مسجد للعبادة وصار من فيه بين راكع وساجد وتال للقرآن وذاكر لله عز وجل .. وجعل الإمام يعطيهم دروساً في تفسير القرآن الكريم ففسر لهم سورة الفاتحة وسورة البقرة فأنس إليه السجناء وتأثروا به .. حتى حراس السجن الذين نشأوا على سفك الدماء وارتكاب الجرائم.

ومضت مدة من الزمن والأمر كذلك والإمام لا يألو جهداً في تعليم دين الله .. وفي إحدى حلقات الدرس حدثهم عن القرآن فقال:

واعلموا رحمكم الله أن القرآن والعمل به يهدي للتي هي أقوم لأن الله شرّفه وكرّمه ورفعه وعظّمه وسمّاه روحاً ورحمة وهدى وشفاء ونوراً .. وقطع منه بمعجز التأليف أطماع الكائدين، وأبانه بعجيب النظم عن حيل المتكلفين، وجعله متلواً لا يُمل، ومسموعاً لا تمجه الآذان، وغضا لا

يخلق عن كثرة الرد، وعجيباً لا تنقضي عجائبه، ومفيداً لا تنفد فوائده.

والقرآن على أربعة أوجه: حلال وحرام لا يسع الناس جهالته .. وتفسيره يعلمه العلماء .. وعربيه يعرفه العرب .. وتأويله لا يعلمه إلا الله وهو ما يكون مما لم يكن.

واعلموا رحمكم الله أن للقرآن ظهراً، وبطناً، وحداً ومطلعاً، فظهره تنزيله، وبطنه تأويله، وحده فرائضه وأحكامه، ومطلعه ثوابه وعقابه.

فقام إليه أحد السجناء - وكان يسمى أبو غسان الأزدي- فقال:

والله يا ابن رسول الله لأنت أعلم بالقرآن وما فيه .. فوالله لقد جلست إلى العلماء والفقهاء فلم أر أحداً منهم أعلم بالقرآن منك.

الفصل الثامن

(١)

سارع الوزير إلى إرتداء ملابسه واعد نفسه للدخول على الخليفة .. ثم أقبل على مجلس هشام بعد أن أخبره الحرس أنه قد دخل إلى مجلسه وقبل أن ينظر إلى كرسي الخليفة رفع صوته بالسلام والدعاء للخليفة ورأسه منحنٍ إلى صدره .. وتردد صدى صوته في المجلس ولم يسمع جواباً ورفع رأسه فإذا كرسي الخلافة فارغاً.

فجعل يتلفت يميناً وشمالاً باحثاً عن الخليفة .. فإذا الخليفة قد جلس على كرسي في إحدى زوايا المجلس وقد وضع رأسه بين يديه واستغرق في تفكير عميق ولكن ملامح وجهه كانت تنبئ عن غضب عارم وحيرة جعلته

يبدو مشتت الذهن.

وأمام هذا المنظر وقف الوزير كعمود الرخام لا ينبس بكلمة .. يكظم أنفاسه مخافة أن يتفجر غضب الخليفة فيكون أول من يصتطدم به .. وجعل يقول في نفسه: لا شك أن لزيد في الأمر يد فما اعتدت أن أرى الخليفة على هذا الحال إلا إذا كان الأمر يتعلق بزيد بن علي.

وبدأ يسبح في تفكير عميق يستعرض فيه أمر زيد والخطط التي حاكها للقضاء عليه وإسقاطه من أعين الناس ...

وفي أعماق ذلك الصمت القاتل انطلق صوت أشبه بانفجار البراكين ليمزق ذلك الصمت ويحيله إلى حقد أسود انبعث من أعماق التاريخ من أحشاء أبي سفيان ومعاوية ومروان بن الحكم .. حين قال هشام:

- سأمزقه .. سأحتز رأسه .. وسأجعله عبرة لمن اعتبر.. ومضرب مثل لكل من أراد أن يقف في وجه بني أمية ..

وحينها توصل الوزير إلى فكرة لمعت لها عيناه فبادر قائلاً: هدئ من روعك يا مولاي فما مثل زيد من يعكر عليك صفوك فما هو إلا واحد من رعيتك بيدك حياته وموته.

هشام: كيف أُهدئ من روعي أيها الأحمق وقد أحال حتى السجن إلى مسجد للعبادة وحلقة للدرس وجعل من السجناء والحرس تلامذة له.

الوزير: لقد خطرت برأسي فكرة يا مولاي .. عسى أن يكون فيها خلاصنا منه بطريقة لا تثير علينا الرعية.

هشام: قل .. ما هي أيها الوزير؟

الوزير: إن زيداً يا مولاي يكمن خطره في جلوسه إلى الناس وأرى يا مولاي أن نشغله بأمر نفسه حتى لا يتمكن من الجلوس إليهم.

هشام: كيف ذلك؟ أوضح أيها الوزير.!

الوزير: أرى يا مولاي أن ترسل إلى يوسف بن عمر والي العراق .. فتجعله يخرج خالد القسري من سجنه ويعده إن ادعى على زيد بن علي دَيْناً أخرجه من سجنه .. ثم تستدعي زيداً فترسله إلى يوسف بن عمر مع شخص لا يمكنه من الجلوس مع الناس أو الإلتقاء بهم .. فإذا صار إلى يوسف حاسبه على المال ثم يخرجه من العراق إلى المدينة .. فيستمر خالد بن عبد الملك بن الحارث في إيذاء زيد وأهل بيته .. فيعود إليك يشكو خالداً وهكذا لا يستقر به الوضع في بلد فتأمن شره.

هشام: ومن الذي يضمن لي رجوعه إلي وقد ساء مابيني وبينه؟

الوزير: إذا لنت له يا مولاي طمع في إنصافك فعاد إليك.

هشام: علي بالبريد الخاص.

الوزير: ولكني أرى يا مولاي أن تدخل معه في التهمة غيره

حتى لا يستشعر زيد ما ندبره له.

هشام: من ترى أيها الوزير؟

الوزير: أرى أن ندخل معه أولئك الفتية الذين صحبهم إلى العراق وآخرين من أقاربكم يا مولاي فيكون الأمر أكثر حنكة.

هشام: لئن نجحت مشورتك هذه المرة لأعطينك ما يسرك .. أكتب ما أمليه عليك..

«من هشام بن عبد الملك أمير المؤمنين إلى يوسف بن عمر إذا أتاك كتابي هذا فأخرج خالد القسري من سجنه واعطه عهداً إن ادّعى على زيد بن علي ومحمد بن عمر بن علي بن أبي طالب وداود بن علي بن عبد الله بن العباس وسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن المغيرة المخزومي .. أن تخرجه من سجنه وترد عليه إمارته فإن أجدى معه الترغيب وإلا عليك بالترهيب»

ثم أخذ الرسالة وذيلها بختمه وبعث بها إلى يوسف بن عمر..

ثم أمر هشام بإخراج زيد من السجن إلا أنه منعه من العودة إلى المدينة..

فبقي الإمام زيد أياماً في الرصافة .. وخلال تلك الفترة حضر إليه ابن عمه محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب .. وكان يحمل إليه بعض رسائل محملة بالعزاء له في أحد أولاده فكتب مجيباً على من عزاه: ((أما بعد فإنّا أمواتٌ أبناء أمواتٍ آباء أموات فيا عجباً من ميت يعزي ميتاً عن ميت. والسلام)).

* * *

ولم تمض أيام حتى وصل رسل والي العراق يحملون إلى الخليفة الجواب على رسالته التي بعث بها إليه .. فكان مضمون الجواب: ((إلى مولاي أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك من يوسف بن عمر قد تم لكم ما أردتم .. وهذا

خالد يدعي على من ذكرت ديْناً فأرسلهم إليّ أجمع بينهم)).

فأرسل هشام في طلبهم.. فلما دخلوا عليه جعل يلاطف الإمام زيد(ع) على غير عادته.

هشام: أيها القوم وصلتني رسالة من يوسف بن عمر والي العراق بلغني فيها أن خالد القسري يدعي عليكم ديْناً من أيام ولايته على بلاد العراق فماذا تقولون؟

فأنكر جميعهم أن يكون لخالد عندهم شيء ..

هشام: فأنا باعث بكم إليه يجمع بينكم وبينه؟

زيد: أناشدك الله والرحم لا تبعث بنا إلى يوسف.

هشام: وما الذي تخاف من يوسف يا زيد؟

زيد: أخاف أن يتعدى علينا؟

هشام: أكتب إليه فلا يتعدى كتابي فيكم؟..

ثم أمر كاتبه أن يكتب إلى يوسف بن عمر:

((أما بعد: فإذا قدم عليك زيد بن علي وفلان وفلان ..

فاجمع بينهم وبين خالد القسري فإن هم أقروا بما ادعى عليهم فأسرع بهم إليّ .. وإن هم أنكروا .. فاسأله البينة .. فإن لم يقمها إستحلفهم بعد صلاة العصر ما استودعهم وديعة ولا له قِبلهم شيء ثم خل سبيلهم)).

الإمام زيد: أخاف أن يتعدى كتابك؟

هشام: كلا فأنا باعث معكم رجلاً من الحرس يأخذه بذلك حتى يفرغ ويعجل ..

فقالوا: جزاك الله خيراً والرحم.

(٢)

وفي زنزانة منعزلة .. كان يجلس خالد القسري في ثياب رثة بالية .. قد نحل جسمه وغابت محاسن وجهه .. قد أثقلته القيود وظهرت على جسده آثار السياط وعلامات التعذيب ..

كان خالد منهك القوى شارد الذهن .. فقبل أيام عُرض عليه عرض مغري أعاد إليه الأمل في الخروج

من قبضة يوسف بن عمر والعودة إلى منصبه ومكانته في المجتمع ..

كان يقول في نفسه: ماهي إلا مجرد مقابلة مع زيد بن علي ودعوى كاذبة وبعدها مجد وسلطان .. ثم يعود فيحدث نفسه: ولكن كم مرة كنت خادماً مطيعاً لهذا السلطان ممتثلاً لأمره .. أقتل خيار هذه الأمه وأؤذي أتقياءها وبمجرد خطأ واحد صرت رهين سجونه -كان يمر على ذاكرته حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ((من أعان ظالماً أغري به))-وهبني اتهمت زيداً من يضمن لي وفاء يوسف بوعده لقد علمَّني الزمان أن الظالمين لا وفاء لهم.

كانت جدران تلك الغرفة القذرة التي أودع فيها خالد تعطيه درساً وتدله على الطريق فإذا لم يحتمل سجناً كهذا .. فكيف يحتمل نار جهنم وهو بلاء تطول مدته ويدوم مقامه ..

وقطع عليه سلسلة أفكاره صوت أحد الجنود كان يتقدم نحو زنزانته بخطىً سريعة ثم فتح الباب ودخل على خالد .. وبصوت آمر متوعد قال له:

- اسمع يا هذا إياك أن تقول غير ما اتفقت مع مولاي عليه .. فوالله لئن سوّلت لك نفسك شيئاً لأذيقنك من العذاب ألواناً ... ولوَّح بسوطه أمام وجه خالد.

خالد: ومتى يجمع بيني وبين زيد وأصحابه؟

الحارس: إنه ينتظرك مع زيد في المجلس .. فقم معي.

كان الحارس يسوق خالداً وخالد لا يكاد يدرك ما يدور حوله لقد جعل يخير نفسه بين الجنة أو النار .. بين طاعة الله وطاعة السلطان .. حتى دخل على يوسف بن عمر وعنده زيد بن علي عليه السلام وبقية أصحابه.

يوسف: اسمع يا خالد إن زيداً ينكر أنك قد أودعت عنده مالاً .. فهل لك بينة على ما ادعيت؟

رفع خالد نظره واستعرض الوجوه التي وقفت أمامه ..

فرأى آثار السجود النورانية الإلهية في وجوه القوم .. وآثار الغبرة الشيطانية في وجه يوسف بن عمر ومن حوله فآل على نفسه أن يحسم القضية وينطق بكلمة الحق .. وأخذ قراره الأخير في هذه اللحظة.. فالتفت إلى يوسف بن عمر وقال:

- أتريد أن تجمع مع إثمك إثماً في هذا -وأشار إلى زيد- كيف أُودِعُه مالي وأنا أشتم آبائه على المنبر؟!

كاد يوسف بن عمر أن يخر صعقاً مما سمع فما كان يشك أن خالداً سيجرؤ على مخالفته.

يوسف بن عمر: أتهزأ بي وبأمير المؤمنين أيها الأحمق خذوه وأنزلوا به من التعذيب ما يليق بمثله.

وأنهالت عليه السياط من كل جانب وسحب خالد من المجلس وضرب حتى أوشك على الموت ثم التفت يوسف بن عمر إلى زيد وأصحابه وقال:

- إذا كان عصر هذا اليوم استحلفتكم في المسجد؟

زيد: على أي شيء تستحلفنا وهذا خالد قد أنكر أنه أدعى علينا شيئاً.!

يوسف: أصمت يا زيد ..

ثم التفت إلى قائد شرطته قائلاً:

- خذهم الآن.

جلس زيد مع أصحابه .. وكان شارد الفكر يبحث عن تفسير لما يحدث .. فالإمام زيد كان من الفطنة والذكاء بمرتبة تجعله يدرك أبعاد هذه المؤامرة .. والتفت إليه ابن عمه محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب قائلاً:

- عجبي يا زيد لكأنك أنت المقصود لوحدك بهذا كله فإنه لم يلتفت إلينا يوسف بن عمر ولا حتى خالد القسري.

وكان لسان حال الإمام زيد يقول: يا ابن العم والله ما أرادوا غيري .. وإني لأعتقد أن كل ما يدور إنما هو أمر مدبر من عند هشام.

داود: ولكن أين ذهب أيوب بن سلمة فمنذ دخلنا العراق

ما رأيناه وهو أحد من ادعى عليهم خالد القسري؟!

الإمام زيد: إنما وضعوه معنا يا داود كي يقال إن الخليفة لا يمكن أن يدعي على خاله باطلاً فأيوب بن سلمه من أخوال هشام.

محمد: وما تراه يريد من وراء استحلافنا في المسجد رغم أن خالداً قد كذبه وفضحه وأنكر دعواه.

زيد: إنه يريد أن يقول لأهل العراق هذا زيد وأهل بيته ينهبون الأموال ثم ينجون أنفسهم بالأيمان.

* * *

وبعد صلاة العصر وقد ازدحم المسجد بالناس تقدم زيد ومن معه فحلفوا ما لخالد عندهم من قليل ولا كثير .. فعلم كل من في العراق من الشيعة بمقدم زيد بن علي عليه السلام. ثم جمع يوسف زيداً ومحمد بن عمر بن علي وقال لهما:

اسمع يا زيد أنت ومحمد لا أريد أن تغرب شمس الغد

إلا وقد ارتحلتم.

زيد: أبعد مشقة الرحلة من الشام تريد أن نرحل إلى الحجاز؟ أما ترى ما بنا من التعب والجهد؟

يوسف: هذا أمر أمير المؤمنين هشام وليس أمري.

خرج الإمام زيد مع صاحبه وجعل يتنقل في الكوفة ويلتقي بشيعته وأصدقائه يبحث معهم عن مخرج من هذا الوضع ولكن عيون يوسف وجواسيسه كانوا يرقبون تحركاته .. فجعل يوسف بن عمر يرسل عليه يأمره بالخروج .. والإمام يعتذر إليه ببعض الأشغال وبأشياء يبتاعها وبقي على هذا الحال خمسة أشهر يتخفى في بيوت أتباعه ومواليه يبث العلم والمعرفة ويقرب بين الآراء .. ويعالج آثار الهزيمة والإحساس بالذنب بعد معركة كربلاء .. حتى أرسل يوسف بن عمر معه من الجنود من يخرجه ويراقبه حتى يغادر الكوفة وما حولها فمضوا معه إلى القادسية واطمأنوا على عزمه بالرحيل.

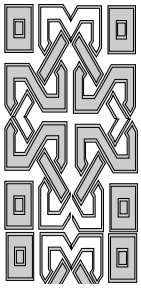

البَابُ الثَّانِي

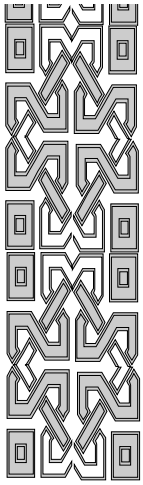

مواقف إيمانية..

وبطولات خالدة..

الفصل الأول

(١)

نامت الكوفة .. ونام أميرها قرير العين بعد أن خليت من الإمام زيد.

وبينما هي تسبح في نوم عميق كان هناك صوت حفيف أقدام تجوب شوارع الكوفة يطرقون الأبواب طرقاً خفيفاً مخافة أن يلحظهم أحد.

وفي بيت منعزل بدأ القوم يجتمعون .. كان صاحب البيت يراقب الداخلين من نافذة مجاورة وآخر يراقب المنازل المجاورة .. وكان معظم من دخل الدار إما في الأربعينات من أعمارهم أو في الخمسينات.

وفي ضوء ذلك المصباح الخافت بدأت وجوههم تتلألأ

وكان الغالب عليهم سيماء الصالحين ..

دخل عليهم صاحب الدار -معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة- فقام الجميع إجلالاً واحتراماً .. فألقى عليهم السلام فرفع الجميع أنظارهم إليه ينتظرونه لكي يطلعهم على سبب هذا الإجتماع في هذا الوقت المتأخر من الليل.

أحدهم: تكلم يا معاوية بن إسحاق ما الذي جعلك تدعونا في مثل هذه الساعة من الليل؟

معاوية بن إسحاق: اسمعوا يا قوم لقد دعوتكم لخير دينكم ودنياكم فأن أطعتموني نلتم الخير كله .. فوالله لو سئلت: من خير أهل العراق؟ ما عدوتكم .. وهذا ابن بنت نبيكم يبيت الليلة في القادسية أعني زيد بن علي .. وما منا أحد إلا وقد عرف فضله وعلمه .. ووالله لئن فاتكم هذا الفتى لن تجدوا لكم خلاصاً بعده .. فتعالوا نسعى إليه فنبايعه على السمع والطاعة والجهاد بين يديه

ثم نجمع له من استطعنا من شيعة أهل هذا البيت للجهاد معه ونخرج للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. والله إني أخاف أن لا تقبل منا صلاة ولا صيام ونحن نداهن الجبابرة فلا نأمر بمعروف ولا ننهى عن منكر.

فقام إليه أحدهم وقال: اسمع يا معاوية بن إسحاق والله ما منا من أحد إلا وقد كره الحياة واشتاق إلى الموت .. فأي ذلة أعظم مما نحن فيه ولكن نخاف أن لا نجد الناصر ونعرضه للهلاك.

كانت هذه الإجابة هي الأمر الذي تبادر إلى أذهان الجميع .. ولذلك ردد الجميع: القول ما قلت.

معاوية بن إسحاق: يا قوم لكل منا عشيرة وأهل .. والله لقلة مؤمنين خير من كثرة فجار .. والناس قد كرهوا الجور والظلم وما أراهم منتظرين إلا من يقودهم .. ولا أعتقد أن هناك على وجه هذه الأرض من هو خير من زيد بن علي يمكن أن يقوم بهذا الأمر .. فأعينوني

على هذا الأمر وتعالوا لنلحق بزيد عساه أن يقبل بيعتنا ويعود معنا.

وخرج الجميع وركبوا إلى القادسية وجعلوا يعرضون الأمر على الإمام زيد فجعل يتحاور معهم ويسأل عن عددهم وعدتهم.

* * *

كان الإمام زيد يرى ضرورة مواجهة قوى الظلم والطغيان الأموي ذلك الذي سلب الأمة كل مقوماتها.

فكان لا بد من حادث يخرج الأمة من تلك الغيبوبة وينفض عن شريعة الإسلام تلك الصيغة الزائفة التي تعمّد حكام الدولة أن يصيغوها بها .. فجعلوا من أنفسهم ملوكاً يتحكمون في مصير الأمة .. يستعبدونهم وينتهبون ثرواتهم ويستأثرون بخيراتهم.

وبعد أن لزمت الإمام زيداً عليه السلام الحجة واعتقد بوجوب الخروج لمنابذة الظالمين أعلن عن موافقته لهم.

وبهذه الموافقة مزق ذلك الرعب الذي كان قد سيطر على أهل البيت عليهم السلام وأشياعهم بعد معركة كربلاء الأليمة .. لكن الخوف من تكرر المأساة جعل الكثير من أهل البيت عليهم السلام يثنون الإمام عن عزمه لما استشعروه من قلة الأنصار..

فهذا رفيقه في سفره محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب لما علم نية زيد في الخروج مع القوم قال له: بالله عليك يا أبا الحسين إلا ما رجعت معي إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدت إلى أهلك وولدك فإن أهل العراق لا يوفون لك .. أنسيت موقفهم مع جدك الحسين عليه السلام؟ فقد راسلوه حتى أخرجوه ثم كانوا أول من قاتله.

ولكن الإمام زيد عليه السلام رأى أن الحجة قد لزمته بعد أن أعطوه العهود والمواثيق بالجهاد بين يديه .. فرجع إلى الكوفة متخفياً.

وما هي إلا أيام قلائل من سفر محمد بن عمر بن

علي بن أبي طالب حتى أقبل عليه وفد من المدينة فيهم ولده يحيى ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن .. وعبد الله بن علي بن الحسين .. والعباس بن ربيعة من بني عبد المطلب.. ولما وصلوا إليه سلموه رسالة من عبد الله بن الحسن بن الحسن يحذره أهل الكوفة .. فتصفحها فإذا فيها: ((أما بعد فإن أهل الكوفة نفخ في العلانية .. خور في السريرة .. هرج في الرخاء .. جزع في اللقاء .. تتقدمهم ألسنتهم .. ولا تشايعهم قلوبهم .. وما لهم مثل إلا كما قال علي عليه السلام: إن أُهمِلْتم خُضتم .. وإن حُورِبتم
خِرْتم .. وإن اجتمع الناس على إمام طَعنتم .. وإن أجبتم إلى مشقة نَكصتم..)).

وتحدثوا معه يحاولون أن يثنوا عزمه ويرجون أن يوافق على أن يرجع معهم إلى المدينة ولكنه اعتذر لهم وأخبرهم أن الأمر ليس بيد أحد وأن الحجة قد لزمته.

* * *

كان حب آل البيت للإمام زيد(ع) يفوق كل تصور .. ولذلك إشتد خوفهم عليه مع إدراكهم لضرورة الجهاد في سبيل الله .. ولذلك عندما أدركوا عزمه على الجهاد ثبتوا معه إلى نهاية المعركة ثم جعلوا منه علماً يسيرون على نهجه .. فخرجوا يقاتلون في سبيل الله الواحد تلو الآخر.

وكانت محاولات المشفقين والمحبين لثني الإمام عن عزمه تتكرر يوماً بعد يوم ولكن دون جدوى فقد دخل عليه أحد العلماء فتحدث إلى الإمام زيد فذكر فضله وعلمه وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأجابه الإمام فأحسن الثناء على الإمام، وشكره الإمام على حسن ثنائه.

العالم: أناشدك بالله كم بايعك؟

الإمام: أربعون ألفاً.

العالم: فكم بايع جدك؟

الإمام: ثمانون ألفاً.

العالم: فكم حصل معه؟

الإمام: ثلاثمائة؟

العالم: أناشدك الله أنت خير أم جدك؟

الإمام: بل جدي.

العالم: أفقرنك الذي خرجت فيه خير أم قرن جدك الذي خرج فيه؟

الإمام: بل القرن الذي خرج فيه جدي.

العالم: أفتطمع أن يفي لك هؤلاء وقد غدر أولئك بجدك؟

الإمام: لقد بايعوني ووجبت البيعة في عنقي وأعناقهم.

(٢)

راسل الإمام زيد علماء الأمة ودعاهم إلى بيعته ومناصرته.. فبايعه الكثير منهم، منهم: سلمة بن كهيل

الحضرمي -العالم والمحدث- .. وأبو عبد الله الكوفي -من مشاهير المحدثين وكان من أشهر أصحابه- ويحيى بن دينار .. ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة .. ونصر بن خزيمة العبسي .. وأرسل الإمام دعاته إلى الأمصار وراسل من بقي من العلماء فسارع الناس في إجابة الإمام- وبالذات العلماء-.

وكان من أبرز من استجاب له في عصره أبو حنيفة النعمان فقد أرسل إليه الإمام زيد أحد دعاته وهو الفضيل بن الزبير فدخل عليه في مجلسه وكان الرقباء والجواسيس قد وضُعوا في كل مكان حتى في حلقات العلم ومجالس الطلبة.

الفضيل: يا نعمان إن الإمام زيد يعرض عليك الخروج والجهاد معه لرفع هذا الظلم الذي نزل بالأمة والعودة بها إلى كتاب الله وسنة رسوله.

تلفت النعمان يميناً وشمالاً مخافة أن يكون أحد قد سمع كلام الفضيل .. فالسوط والسيف الأموي ما كان ليرحم

أحداً وبقي مدة صامتاً لا ينطق .. ثم نطق بكلمات حاول أن يظهر فيها الإستنكار مخافة أن يكون أحد قد سمع كلام الفضيل قائلاً: ويحك ما تقول أنت؟!

ثم تنحى به جانباً وقال للفضيل:

- من تبعهُ من علماء الأمة؟

الفضيل: سلمة بن كهيل .. ويزيد بن زياد .. وهارون بن سعد .. وأبو هاشم الرماني .. وحجاج بن دينار..

وكان قد انتهى إلى هؤلاء الفضل والورع والعلم حتى صاروا مضرب مثل للعلماء والعوام.

وعاد مرة أخرى ليلتقي أبا حنيفة فلمس أن هناك من يراقب الوضع ويحاول أن يدرك ما يدور في ذلك الحوار فالتفت أبو حنيفة إلى الفضيل وقال له:

- اسمع يا فضيل اذهب اليوم وأتني في الغد .. ولا تكلمني بكلمة ولكن اجلس في مجلسي فإذا رأيتني أخرج

فاقْفُ أثري.

وفي اليوم الثاني ذهب الفضيل إلى مجلس أبي حنيفة فلما رآه أبو حنيفة هب من مجلسه وخرج فتبعه الفضيل حتى وجد مكاناً خاليا فالتفت إلى الفضيل وقال:

- يا فضيل أقرئه مني السلام .. وقل له أما الخروج معه فلست أقوى عليه لمرض في ولكثرة الأمانات عندي .. ولكن خذ هذا المال وقل للإمام هذا معونة على الكراع والسلاح فليستعن به -وكانت ثلاثون ألف درهم أو دينار.

* * *

وبقي الإمام زيد في الكوفة أحد عشر شهراً يدعو الناس .. ويستقبل الوفود من سائر البلدان حتى بلغ أنصاره خمسة عشر ألفاً من أهل الكوفة فقط غير من بايعه من سائر البلدان.

وهنا نشطت الجاسوسية الأموية فأدركت ذلك الفجر

الذي يكمن خلف الظلام ينتظر اللحظة المناسبة ليمزق ذلك الليل البهيم بأشعة نوره .. فتطلع الأمة على حقيقة تلك الثلة الحاكمة التي استعبدت الأمة ونهبت خيراتها ومقدراتها.

فطاروا بالأخبار نحو قصر الخلافة في الشام حيث كان الخليفة هشام غارق في مشاكله الداخلية التي شغلته عن زيد وأخبار زيد.

كان هشام قد بلغ من السن ما جعله يشعر بقرب الأجل .. فعز عليه أن يترك كرسي الخلافة لغير ولده .. فأراد أن يعزل أخاه ويولي ابنه مسلمة .. ولكن ما حملته رسل العراق من الأخبار كان كفيلاً بأن يشل تفكير الخليفة عن أي موضوع آخر فقد عاد شبح زيد ليطارده من جديد.

أحد الرسل: يا مولاي إن زيداً يجمع الأنصار منذ زمن ويتأهب للخروج ويوسف بن عمر غارق في لهوه؟

فالتفت هشام إلى كاتبه وقال له: اكتب إلى يوسف بن عمر: «إنك لغافل وإن زيد بن علي غارز ذَنَبه في الكوفة

يُبايع له وقد علمت أهل الكوفة وحبهم أهل هذا البيت .. ووضعهم في غير مواضعهم .. وقد قَدِم عليّ زيد بن علي فرأيته رجلاً جَدَلاً لَسِناً خليقاً لتمويه الكلام وصوغه واجترار الرجال بحلاوة لسانه وبكثرة مخارجه في حججه وما يدلي به عند لداد الخصام من السطوة على الخصم بالقوة الحادة لنيل الغلب .. فعجل إشخاصه إلى الحجاز .. وألح في طلبه وأعطه الأمان .. وإن لم يقبل فاقتله)).

وصلت الرسالة من طاغية الشام لتهيج طاغية العراق وتثير شهيته التي لا تخمد إلا عند سفك الدماء .. فبث جواسيسه في الآفاق يتتبعون الأخبار ويرقبون بيوت من عرفوا بالتشيع وصار التواصل بين الإمام وأصحابه أقرب إلى المستحيل .. فقد ضيق عليه الخناق .. فصار حتى التنقل تحت جنح الظلام أمراً صعباً .. فالشوارع والأسواق وحتى المساجد والديار صارت لا تخلو من مراقبة مستمرة.

الفصل الثاني

(١)

كان جميع من بايع الإمام من سائر الأمصار قد علموا بالموعد وأعدوا العدة .. فالأول من صفر صباح الأربعاء كان هو اليوم الذي اختاره الإمام زيد لإعلان ثورته. ولكن الوقت كان يمر في تثاقل وبطء والخناق يضيق على الإمام وأصحابه يوماً بعد يوم .. وصار اليوم وكأنه سنة كاملة.

فهذا يوسف بن عمر يتتبع كل من يعتقد أن له صلة أو قرابة بالإمام فيقتل بمجرد الظن .. ويعذب بمجرد الشك .. وكلمات الوشاة صارت عنده نصوصاً يصح الإستلال بها على سفك الدماء .. فهذا سراقة البارقي أحد ذيول بني أمية يخمن للوالي بوجود زيد في بعض المنازل فيسارع يوسف بن عمر إلى الأمر بمداهمتها وقتل كل من فيها..

وساد جوٌ من الإرهاب والوجل والخوف .. وبثت الدعايات بقدوم جيش الشام .. واشتد فزع الناس .. وبعد مراقبة شديدة أدرك أحد الجواسيس وجود زيد في بيت معاوية بن إسحاق فأسرع نحو دار الإمارة.

الجاسوس: مولاي .. إن زيداً في بيت معاوية بن إسحاق.

يوسف: داهموا البيت واقتلوا كل من فيه.

كان الحكم بن الصلت أحد القادة الأمويين .. ووالي يوسف على الكوفة جالس في مجلس يوسف فنهض من مكانه وقال:

هل لي أن أشير في الأمر .. فما ظني أن زيداً سيكون لوحده في الدار .. فأخاف أن تفتح علينا باباً فيقاتلنا بمن معه فينتشر الخبر ويسرع أصحابه لنصرته ونجدته .. أرى يا مولاي أنك لو تبعث من ينادي في الكوفة فيجمع وجهاء أهل الكوفة وعامتهم في المسجد .. ثم تداهم الدار .. وهذا هو ما أراده مولاي الخليفة في رسالته.

يوسف بن عمر: ولَّيتك هذا الأمر فانطلق.

فانطلق الحكم بن الصلت وجمع العرفاء والشرطة والمقاتلة فجمعوا الناس في المسجد الأعظم .. وأغلقت دروب السوق ثم أمر المنادين ينادون في النواحي: أيما رجل من الأعراب والموالي أدركنا زيداً في رحله الليلة فقد برأت منه الذمة .. وأمر مجموعة من الجنود أن يتقدموا نحو دار معاوية بن إسحاق .. وجعلوا يسدون عليه المنافذ ويقتربون في صمت وخفاء .. يريدون أن يستفيدوا من مباغتة الإمام ومن معه .. ويمنعوهم من المقاومة .. وبخطى سريعة بدأ الجنود يتقدمون فالحقد والهيمنة وظلام الليل والصقيع .. الكل كان يمد يديه وكأنه يتكاتف محاولاً اقتطاف تلك الروح الطاهرة.

كان الإمام زيد يرقب الوضع بجذر شديد وأدرك أنه قد انكشف أمره .. وأنهم إذا حاصروه وأصحابه وسدوا عليهم المنافذ أمكنهم القضاء عليهم .. فكان الإمام بين أمرين إما التعجيل بالخروج ونتائج الأمر غير مضمونة ..

وإما الإنتظار .. ومعنى ذلك أن يتخطف أصحابه من حوله واحداً تلو الآخر .. وقد تسد عليه جميع الطرق فلا يتمكن أصحابه من الوصول إليه.

كان الترجيح صعب ولكن كان الرأي الأول هو الأقرب .. وكان كل من في دار معاوية بن إسحاق ينتظرون أمر الإمام.

وتحت جنح الظلام في ليلة شديدة البرد خرج الإمام بمن معه من بيت معاوية بن إسحاق ورفعوا أصواتهم بالشعار: (**يا منصور أمت**).

ذهل الجنود المهاجمون الذين أمروا بمداهمة البيت.

وفجأة تحول ذلك الصمت إلى ضجيج وتكبيرات وصيحات .. ولم يفيقوا من ذهولهم إلا وقد تجاوزهم الإمام ومن معه فانطلق أتباع الإمام في الشوارع والأزقة وبين العشائر ينادون بالشعار المتفق عليه: (**يا منصور أمت**).

* * *

وفي صبيحة ذلك اليوم أمر الإمام زيد (ع) القاسم التبعي وآخرين بالخروج إلى العشائر والنداء بالشعار .. فمضوا ينادون بالشعار .. فسمعهم يحيى بن صالح بن يحيى بن مالك بن خزيمة وكان رجلاً صيتاً فنادى معهم بالشعار.

وذهب ابن الجارود زياد بن المنذر إلى مئذنتهم .. فرفع صوته بالشعار.

فلما كانوا في صحارى عبد القيس لقيهم جعفر بن العباس الكندي مع جمع من أصحابه -وكان من أتباع يوسف بن عمر- فحملوا على المنادين فقتل أحدهم وأخذ القاسم التبعي بعد أن جرح إلى الحكم بن الصلت فلقيه على باب القصر..

الحكم بن الصلت: أين أصحاب زيد؟ وكم عددهم؟ وما عدتهم؟ .. أخبرني إن شئت النجاة ..

صمت القاسم وجعل ينظر إلى الحكم بن الصلت

في احتقار .. فأمر الحكم بضرب عنقه..

وعلى الفور ضربت عنقه وأعلن نهر الدم أنه قد آن الوقت ليبدأ تدفقه ليعيد ذكرى كربلاء مرة ثانية.

(٢)

بقي يوسف بن عمر في الحيرة يناوش زيد بن علي عليه السلام فيرسل بعض قواده ليطلع على بعض ما يدور في أرجاء الكوفة.

يوسف بن عمر: من يأتي الكوفة فيقرب من هؤلاء القوم فيأتينا بخبرهم.

عبد الله بن عياش: أنا آتيك بخبرهم.

وانطلق عبد الله بن عياش مع خمسين فارساً .. وما هي إلا مدة قصيرة حتى أقبل على يوسف بن عمر بخبر أهل الكوفة .. وأمسى يوسف بن عمر مغتماً لا يدري أيدخل على الإمام زيد الكوفة فيقاتله في شوارعها وأزقتها أم

ينتظر خارج الكوفة ويستدرج جيش الإمام إلى هناك.

أخذ يوسف بن عمر قراره ووضع خطة الحرب لمواجهة الإمام زيد وأتباعه.

ومع شروق شمس اليوم الثاني خرج مع جنوده من أهل الشام وأهل العراق وخرج معه وجهاء أهل العراق وأمير شرطته .. وأمر بتجهيز جيش يزيد عدده على ألفي فارس وثلاثمائة من الرماة.

ثم أرسل مجموعة مع قائد شرطته العباس بن سعد المزني .. وأمر بالتوغل داخل الكوفة ومناوشة الإمام زيد وأتباعه وإخراجهم من بين شوارعها حتى ينكشفوا فيصيروا هدفاً سهلاً للرماة.

* * *

كان الإمام في هذه اللحظات يعدّ أصحابه للمواجهة الحاسمة .. يعدّهم ليضربوا أروع الأمثلة في البطولة والفداء .. فجمعهم فإذا عددهم لم يبلغ الثلاثمائة.

الإمام زيد: سبحان الله .. فأين الناس؟

معاوية بن إسحاق: هم محصورون يا سيدي في المسجد وقد أغلقت عليهم الأبواب ووضع الحرس على الأبواب ليمنعوهم من الخروج.

الإمام زيد: لا والله ما هذا لمن بايعنا بعذر.

لقد كان الإمام زيد ينتظر وصول من بايعه من أهل الكوفة ليجتمع له أكبر عدد ممكن من الرجال.

وجعل من يريد الخروج مع الإمام زيد يقبلون عليه من كل ناحية من نواحي الكوفة.

فكان نصر بن خزيمة يقود مجموعة من أصحابه يحث الخطى ليلتحق بالإمام زيد عليه السلام وفجأة ظهر عمر بن عبد الرحمن صاحب شرطة الحكم بن الصلت في خيل من جهينة.

رفع نصر بن خزيمة صوته بشعار الإمام زيد: (**يا منصور أمت**) .. فلم يرد عليه أحد بشيء .. فاستل سيفه

وشد على عمر ومن معه .. وشد أصحابه معه .. وأراد عمر بن عبد الرحمن أن يستعد للمواجهة ولكن السرعة والإقدام الذي اتخذه نصر وأصحابه أفقدهم توازنهم فقتل عمر بن عبد الرحمن ومجموعة من أصحابه وأسرع من تبقى منهم في الهروب .. وأفسحوا الطريق أمام نصر وأصحابه فأقبل على الإمام فاستبشر الإمام بقدومه .. وبادره الإمام قائلاً:

- يا نصر بن خزيمة أتخاف على أهل الكوفة أن يكونوا قد جعلوها حسينية؟

نصر بن خزيمة: جعلني الله فداك أما أنا فوالله لأضربن بسيفي هذا معك حتى أموت.

أدرك الإمام زيد أن القوم قد خانوه ونقضوا عهودهم .. لكن بصيص الأمل كان يدفعه إلى أن يحاول مع أولئك الذين حُصروا في المسجد. فقاد جيشه وأتجه نحو المسجد ولكن ما كان ذلك ليخفى على أهل الشام .. فقد وضع

يوسف بن عمر أحد قواده وهو عبد الله بن العباس الكندي مع جمع كثيف من أهل الشام ليمنعوا زيداً من التقدم.

وفي ثبات كانت تلك القلة المؤمنة يتقدمون بخطى ثابتة غايتهم وأملهم الشهادة في سبيل الله والوفاء بعهودهم.

* * *

نظر الإمام إلى كثرة أهل الشام وقلة أصحابه فأدرك أنه قد حان الوقت لينظم الجيش حتى يتمكن من مواجهة تلك الجموع التي تزداد كثافة في كل لحظة .. فالمدد من الشام لا يكاد يتوقف فجعل على ميمنته معاوية بن إسحاق .. وعلى ميسرته نصر بن خزيمه .. وأعطى الراية رجلاً من بني سعد بن بكر يسمى عبد الصمد بن أبي مالك .. والتفت الإمام زيد (ع) إلى الرايات فإذا هي تخفق فوق رأسه .. فأشرق وجهه رغم شدة الموقف وخطورة الوضع وقال:

الحمد لله الذي أكمل لي ديني .. والله إني كنت لأستحيي

من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أِردَ عليه الحوض غداً ولم آمر في أمته بمعروف ولم أنه عن منكر.

ثم جرد حسامه وانطلق كأنه البرق الخاطف يفرق الجموع ويحصد رؤوس المتكبرين .. وسرى ذلك الحماس العلوي والثبات المحمدي في قلوب أصحابه فصاروا أشبه شيء بالأسود الكواسر .. فانكشف أهل الشام يميناً ويساراً كل يريد النجاة بنفسه.

وتقدم الإمام وأصحابه حتى أحاطوا بالمسجد فجعلوا يدخلون الرايات من نوافذه بينما كان جنود الشام المتمركزة على سطح الجامع يقذفونهم بالحجارة .. وجعل نصر بن خزيمة ينادي أهل الكوفة: ((أخرجوا من الذل إلى العز وإلى الدين والدنيا)).

فيئس الإمام من استجابة أهل الكوفة وعلم أن من عَجز عن التغلب على بعض الجنود عند باب الجامع جدير به أن يخفق عن مواجهة جحافل الجيش في أرض

المعركة.

واستمر القتال والمناوشات في معظم أزقة الكوفة .. وبدأ الإمام يقود أصحابه فلا يثبت أمامهم أحد .. وحاولوا الإقتراب من دار الرزق فإذا بيوسف بن عمر قد جمع لهم جحافل أهل الشام وأعدهم للقتال بقيادة الريان بن سلمة.

وتقدم الإمام زيد (ع) مع أصحابه حتى اقتربوا منهم وصاروا في مواجهتهم .. فأقبل جنود الشام يرمونهم بالسهام ويجالدونهم بالسيوف .. ولكن العزيمة والإيمان كان أمضى وأشد .. فقد انطلقت تلك السيوف مع تلك العزائم المؤمنة تخترق الجموع وتمزق الصفوف وتخزي الظالمين.

وما هي إلا لحظات حتى انكشف ذلك الجمع .. وقد صاروا بين قتيل وجريح وهارب يرجو النجاة لنفسه..

لم تكن تلك المواجهة مواجهة يحكمها العدد والعدة إنما يحكمها الإيمان والتقوى .. لذلك انتهت تلك المواجهة باستيلاء الإمام وأصحابه على دار الرزق.. في حين

انسحب الريان وجموعه يجرون أذيال الهزيمة.

(٣)

ما إن قاربت الشمس على المغيب حتى تراجع كل فريق إلى معسكره كل ينتظر الغد وما يحمله من المفاجآت .. وكلٌ كان يحاول أن يراجع حساباته ليحصل على نتائج اليوم الأول فقد عاد أهل الشام وهم في أسوأ حال.

كان يوسف بن عمر الثقفي يراجع حساباته مع قواده .. فها هو يستدعي الريان بن مسلمة فدخل عليه وقد ساء حاله لما وقع له من الإمام وأصحابه .. فما كاد يقع نظره عليه حتى نظر إليه في ازدراء وسخرية قائلاً:

- أف لك من صاحب خيل .. أتعجز عن زيد وصحبه وأنت في خيل أهل الشام؟!

والتفت إلى الحارس قائلاً: أدع لي قائد الجند العباس بن سعد المزني.

فلما دخل قائد الجند قال له يوسف:

- اسمع يا عباس إذا كان الغد فتقدم أهل الشام وقاتل زيداً وأصحابه وحذارِ أن يكون يومك مع زيد كيوم هذا -وأشار إلى الريان-، ثم التفت إليه وقال له:

- ولكني أريد أن أعرف منك يا ريان من أشد أصحاب زيد تفانياً في القتال والدفاع عنه.

الريان: والله يا مولاي ما رأيت أحداً منهم إلا وهو أشد الناس حرصاً أن يقتل قبل الآخر فإنهم يتسابقون إلى الموت بين يديه.

يوسف بن عمر: أسكت أيها الأحمق والله لو سمع الجنود كلامك لزرعت فيهم الهزيمة .. أقصد أيهم يعتمد عليه زيد وله كلمة في أصحاب زيد؟

الريان: أعتقد يا مولاي أنهما نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق.

وفي صباح ذلك اليوم وهو الخميس التفت يوسف بن عمر إلى الجند فقال: أيكم يكفيني أمر نصر بن خزيمة؟ فقام رجل كان يسمى نائل بن فروة من بني عبس فقال: والله لأن ملأت عيني من نصر بن خزيمة ليقتلني أو أقتله.

فأخرج له يوسف سيفاً لا يقع على شيء إلا قطعه .. وقال له: خذ هذا السيف.

* * *

وفي نفس الليلة تراجع الإمام عليه السلام وأصحابه .. واستقر بهم المقام في دار الرزق فجعلوا يضمدون جروح المصابين ويترحمون على من فقدوه في ذلك اليوم من الأصحاب .. وتحول دار الرزق إلى مسجد لا يسمع منه إلا التهليل والتكبير وقراءة القرآن.

كان الجميع يعدون أنفسهم للرحيل .. كل واحد منهم يحاول أن يجرد نفسه من أمتاع الدنيا ليقبل على الله بقلب سليم ويد بيضاء.

وبعد يوم وليلة من الصراع والصولات والجولات والمناوشات التي فاحت منها رائحة الشهادة فزادتهم شوقاً إليها. وما كان منهم من أحد إلا وهو يتمنى أنه مكان شهيد من شهداء الأمس القريب.

كان الإمام ينظر إلى أصحابه بعين الحب والإشفاق والتعظيم .. فقد ثبتوا وأبدوا من البطولة ما أذهل أعداءهم وأربك صفوفهم .. ولكن الإمام عليه السلام لاحظ أن معسكره ازداد .. فبالأمس كان عددهم لا يتجاوز الثلاثمائة رجل .. واليوم أصبحوا خمسمائة رجل .. فداخله شيء من الخوف .. فبشائر النصر التي أحرزها في اليوم الأول كانت نتيجة الإخلاص الذي كان يحمله أصحابه .. وخاف أن ذلك العدد الذي انضم إليه قد يكون من أولئك الطامعين في الدنيا.

ووقف الإمام خطيباً في أصحابه فقال:

الحمد لله الذي من علينا بالبصيرة وجعل لنا قلوباً عاقلة

وأسماعاً واعية .. وقد أفلح من جعل الخير شعاره .. والحق دثاره .. وصلى الله على خير خلقه الذي جاء بالصدق من عند ربه وصدق به الصادق محمد صلى الله عليه وآله وسلم .. وعلى الطاهرين من عترته وأسرته .. والمنتجبين من أهل بيته وأهل ولايته.

أيها الناس العجل العجل .. قبل حلول الأجل وانقطاع الأمل .. فوراءكم طالب لا يفوته هارب .. إلا هارب هرب منه إليه .. ففروا إلى الله بطاعته .. واستجيروا بثوابه من عقابه .. فقد أسمعكم وبصَّركم ودعاكم إليه وأنذركم .. وأنتم اليوم حجة على من بعدكم .. إن الله تعالى يقول: {لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ}[التوبة:١٢٢] .. {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ}[الأنفال:٢١] .. {وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا من بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ}[آل عمران:١٠٥].

عباد الله إنا ندعوكم إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا

نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .. إن الله دمَّر قوماً اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

عباد الله كأن الدنيا إذا انقطعت وتقضت لم تكن .. وكأن ما هو كائن قد نزل .. وكأن ما هو زائل عنا قد رحل .. فسارعوا في الخير .. واكتسبوا المعروف تكونوا من الله بسبيل. فإنه من سارع في الشر واكتسب المنكر فإنه ليس من الله في شيء.

أنا اليوم أتكلم وتسمعون ولا تبصرون .. وغداً بين أظهركم جثة هامدة فتندمون .. ولكن الله ينصرني إذا ردني إليه .. وهو الحاكم بيننا وبين قومنا بالحق .. فمن سمع دعوتنا هذه الجامعة غير المفرقة العادلة غير الجائرة .. فأجاب دعوتنا وأناب إلى سبيلنا .. وجاهد بنفسه نفسه ومن يليه من أهل الباطل ودعائم النفاق فله ما لنا وعليه ما علينا .. ومن رد علينا دعوتنا وأبى إجابتنا واختار الدنيا

الزائلة الآفلة على الآخرة الباقية .. فالله من أولئك بريء .. وهو يحكم بيننا وبينهم.

إذا لقيتم القوم فادعوهم إلى أمركم .. فلئن يستجيب لكم رجل واحد خير لكم مما طلعت عليه الشمس من ذهب وفضة .. وعليكم بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالبصرة والشام .. لا تتبعوا مدبراً.. ولا تجهزوا على جريح.. ولا تفتحوا باباً مغلقاً.. والله على ما أقول وكيل.

عباد الله .. لا تقاتلوا عدوكم على الشك فتضلوا عن سبيل الله .. ولكن البصيرة ثم القتال .. فإن الله يجازي عن اليقين أفضل جزاء يجزي به على حق إنه من قتل نفساً يشك في ضلالتها كمن قتل نفساً بغير حق .. عباد الله .. البصيرة البصيرة.

فقام أبو الجارود وقال:

- يا ابن رسول الله فدتك نفسي أيبذل الرجل نفسه على غير بصيرة؟!

الإمام: نعم يا أبا الجارود إن أكثر من ترى عَشِقت نفوسهم الدنيا .. فالطمع أرداهم إلا القليل الذين لا تخطر على قلوبهم الدنيا ولا لها يسعون فأولئك مني وأنا منهم.

وبات الإمام مع أصحابه في تلك الليلة بين راكع، وساجد، وقارئ للقرآن، ومتجهز يتجهز للجهاد.

الفصل الثالث

ومع إطلالة نور الفجر الأول كان الإمام في محراب المناجاة وسطع صوت المؤذن: ((الله أكبر .. الله أكبر .. حي على الصلاة .. حي على خير العمل)).

وتقدم الإمام ليصلي بالناس في خشوع لا مثيل له فالسكينة والطمأنينة كانت قد تمكنت من قلبه .. وما كانت ساحات الجهاد ورقاق السيوف لتشغله عن أداء فريضة الصلاة .. كان يؤمن أن النصر بيد الله .. ويرى أن النصر الأعظم هو الشهادة في سبيل الله.

وبعد أن أتم صلاته وعلا صوت مؤذن الجهاد: حي على الجهاد .. حي على الجهاد.

ودقت طبول الحرب وعلت أصوات المجاهدين بالتكبير

وانتظمت الصفوف وقسم الناس إلى ميمنة وميسرة وقلب .. امتطى الليث صهوة جواده والنور يشع من بين عينيه وتقدم الصفوف ثم استدار نحو أصحابه فتعلقت الأنظار به .. وخمدت الأصوات .. وانسابت الكلمات من بين شفتيه فقال:

الحمد لله مذعناً له بالإستكانة مقراً له بالوحدانية .. وأتوكل عليه توكل من لجأ إليه.. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. وأشهد أن محمداً عبد ورسوله المصطفى والمرتضى الأمين على وحيه.. المأمون على خلقه .. المؤدي إليهم ما استرعاه من حقه حتى قبضه إليه صلى الله عليه وآله وسلم.

أيها الناس أوصيكم بتقوى الله .. فإن الموصي بتقوى الله لم يدخر نصيحة ولم يقصر عن إبلاغ عظة .. فاتقوا الله في الأمر الذي لا يصل إلى الله تعالى إن أطعتموه .. ولا ينتقص من ملكه شيئاً إن عصيتموه .. ولا تستعينوا بنعمته على معصيته .. وأجملوا في طلب مباغي أموركم

وتفكروا وانظروا.

ثم تقدم الإمام الصفوف وانطلق بأصحابه نحو جموع أهل الشام وخفقت راية الحق والحرية تحملها تلك الثلة المؤمنة .. لترسم للأحرار والمؤمنين طريقهم .. وما هي إلا لحظات حتى ظهرت أمام العين تلك الجحافل الأموية الغاشمة يفوق عددها إثني عشر ألفاً.

* * *

تهيأ الفريقان لخوض معركة فاصلة.. واستعد جيش الإمام لاختراق ذلك السيل البشري وكبح جماح كبريائه.. فانطلقوا بعزيمة المؤمن الذي لا يفرِّق بين النصر أو الشهادة .. فالكل يتمنى إحدى الحسنيين .. وتفاجأ القائد الأموي العباس بن سعد المزني من هذا الهجوم الجريء فلم يبق أمامه سوى الدفاع .. فأصدر أمره إلى جيشه بالنـزول ورصهم صفوفاً متجاورة لا يكاد يستطيع المرء أن يلوي

عنقه لشدة تقاربها .. ورفعوا الرماح والسيوف في وجوه المهاجمين .. والتحمت السيوف بالرماح فوق رؤوس البغاة لتشكل حاجزاً حديدياً لحمايتهم من ضربات المهاجمين.

وأقبلت العزيمة والإيمان والتقوى لتكون وجهاً لوجه مع الحديد الصلب .. فامتلأ الكون ضجيجاً وصهيلاً للخيل .. وتطايرت الشرار لتكون أشبه بالبرق الخاطف في لمعانه.

لقد كان المهاجمون قلة في العدد .. لكن كل واحد كان يمثل جيشاً وأمة لوحده .. وثبت الجيش الشامي أمام تلك الضربات بضع دقائق ولكن الصدق والإخلاص والعزيمة لدى المهاجمين كانت كفيلة بإحالة الفولاذ إلى رماد فلا شيء يقف أمام عزائم المؤمنين.

فقد تجاوزت تلك السيوف الحاجز الحديدي .. ومزقت من تحتها من جنود الجور والبغي .. وبدأ الإمام يقاتل مع أصحابه .. هدفهم هو نصرة دين الله ورفع راية الحق وإزلة

ذلك الجور والظلم الذي فرضه الأمويون وأذنابهم على جموع الأمة في كل الأقطار.

وأخفق كل من أراد أن يتصدى لأولئك الثلة المؤمنة .. وأدرك القائد الأموي أن صراع السيوف والمبارزة لن يجدي مع أمثال هؤلاء .. لذا أمر الرماة أن يعدوا أنفسهم .. وبدأ سيل من السهام يتوجه نحو الإمام وأصحابه وكانت صدور القوم تتلقى السهام مقبلة غير مدبرة .. لا تبالي إن وقع في الصدر أو في الذراع .. أو مزق الهامة أو اخترق الثنايا .. المهم أن يكون الإمام في مأمن .. وأن يُقتلوا مقبلين غير مدبرين.

* * *

حميت المعركة .. وكشفت الحرب عن ساقها .. وتفرقت الجموع .. وكثر القتلى .. وكان كل شيء ينادي بالحرية وبإعلاء شريعة الله وهدم عروش الظالمين .. وكان نصر بن خزيمة يقاتل جنباً إلى جنب مع الإمام فيصد عنه كل هجمة غادرة أو ضربة مباغتة .. لا يشغله عن ذلك

شيء.

وعلى بُعْد كان هنالك عين ترقبه لا تشارك في أحداث القتال .. كان ذلك الرقيب يحاول أن يقترب بحذر يتحرك بتحرك نَصْرَ ويسكن بسكونه .. تارة يقترب حتى يصير على بُعد خطوات .. وأخرى تراه يبتعد خوفاً أنْ يناله شيء من تلك الضربات التي يكيلها نصر مرة عن يمين الإمام ومرة عن شماله.

وفجأة انشغل نصر بجموع المهاجمين .. فإذا بذلك الوغد المسمى نائل بن فروة يستل ذلك السيف المرهف والمتميز ليبتر رجله من فوق الركبة.

التفت إليه نَصْر في غضب عارم جمَّد الدم في عروق نائل فشلت حركته .. وهوى عليه نصر بضربة أردته صريعاً ..

علم نصر أنها الشهادة فالتفت إلى الإمام ونظر إليه نظرة مودع .. كان ألمه لمفارقة الإمام في مثل هذه اللحظة الحرجة يضاعف من آلام الجراح .. ولذلك وجه فرسه نحو عدوه والدماء تنـزف من فخذه فجعل يضربهم بالسيف ضرب

من يبغي الشهادة وتوالت عليه ضربات السيوف ووقْع السهام .. حتى خرَّ صريعاً بعد أن ضرب أروع الأمثلة في البذل والجهاد من أجل رد الحق لأهله ورفع الظلم عن أمته.

* * *

انتصف النهار وساحة القتال ترجح كفة الإمام وأصحابه .. واستمر القتال وفي كل لحظة كان الجيش الأموي يزداد كثافة بسبب المدد الوافد من الشام ومن سائر البلدان وتضاعف عدد الرماة الذين بدأوا يقتلون أصحاب الإمام واحداً تلو الآخر .. فسقط قائد ميمنة جيش الإمام زيد -معاوية بن إسحاق- وتلاه عشرات القتلى في صفوف جيش الإمام .. وكان كل هذا يحدث .. ولكن ذلك الجهد الذي كان يقوم به الإمام وجماعة من أصحابه وأهل بيته كمحمد بن عبد الله وبعض إخوانه جعل الخصم لا يشعر بذلك التراجع فالإمام متواجد في جميع الأنحاء.

وأدرك العجز بعض أفراد الجيش الأموي فأحال دفة

الصراع المسلح إلى مناوشات كلامية كشَّر فيها الحقد الأموي عن أعماقه وسوء اعتقاده .. فانطلقت الكلمات لتنال الأعراض .. فهذا أحدهم يتقدم على فرس أبيض فينال من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رمز العزة والعفة والطهارة ليتهمها بأبشع الجرائم .. والإمام في الضفة الأخرى من النهر يسمع تلك الكلمات كانت أشد وأمضى من السهام ومن ضرب السيوف .. فقد سالت الدموع من عيني الإمام بغزارة حتى ابتلت لحيته .. فليس الإمام بالرجل الذي يمكن أن يسقط في المهاترات الكلامية فالإمام يدعو إلى المبارزة الشريفة قائلاً وبصوت يملأ الآفاق:

- أما من أحد يغضب لفاطمة بنت رسول الله؟ أما من أحد يغضب لرسول الله؟ أما من أحد يغضب لله؟؟

فأجابه سعد بن خثيمة قائلاً:

- بلى يا ابن رسول الله .. والله لئن يمكني الله منه لاختطفن روحه.

وما هي إلا ساعات حتى تحول ذلك الشامي من على فرسه إلى بغلة .. فاستقر عليها واستمر يصب سيلاً من الشتائم على الإمام زيد .. وجدته فاطمة بنت رسول الله صلوات الله عليهم أجمعين.

جعل سعد بن خثيمة يراقب ذلك الشامي حتى ابتعد إلى ناحية من أصحابه .. فتناول سعد رداء من فوق أحد غلمانه واستتر به وقطع المسافة في هدوء .. وجعل يمضي باتجاه الرجل حتى استقر فوق رأسه وهوى بسيفه ففصل الرأس عن الجسد .. وبسرعة خاطفة ألقى الجسد الخبيث من فوق البغلة .. وقاد بزمامها وأقبل مسرعاً نحو أصحاب الإمام.

تحرك الخيالة وانطلقوا لأخذ الثأر لصاحبهم .. ولكن

خيل الإمام كانت أسرع فأحاطوا بسعد بن خثيمة ومنعوهم من الوصول إليه .. فأقبل الإمام نحوه مسرعاً وقبله بين عينيه وقال أدركت والله ثأرنا أدركت والله شرف الدنيا والآخرة.

سعد: إليك يا سيدي سلب الشامي .. استعن بها على حرب القوم.

الإمام: لا والله .. بل هي مني لك تنفيلاً.

الفصل الرابع

وفي اليوم الخامس والعشرين من شهر محرم سنة ١٢١هـ كانت الشمس توشك على الغروب .. فقد غاب شيء من توهجها .. وبدأت تجمع أشعتها. وبدأ يخفت نورها .. فبدأ الأفق شاحباً شديد الحمرة .. وانطلق سهم غادر من قوس متمكن ليخترق الأجواء .. في سرعة خاطفة مزق الأجواء .. وبعثر حبات الهواء.

غاب في عمق الغبار المتصاعد وتجاوز كل من كان يحمي الإمام.

لم ينحرف .. كان أسرع من أن يتراجع .. استقر وليته لم يستقر .. وجعل الجبين الطاهر الأغر له محلاً .. وأعلنت شمس السماء عن حلول وقت رحيلها .. وأعلن البدر في ساح الوغى حلول أفوله .. وترجل الإمام عن فرسه .. ووضع يده على جبينه .. والدم الطاهر ينزف

من جبينه .. ليمثل عيناً جارية تُزَيِّن وجه الإمام بالحمرة ويختلط عرق الجبين بحمرة الدماء .. وتتخضب تلك اللحية العشماء بالدم الذي كثيراً ما التهب واحترق من الألم عند ذكر أحوال الأمة .. فمن أجل دعوته إلى كتاب الله استحل الجبناء سفك دمه .. من أجل دعوته لاحيا سنة رسول الله أهدروا دمه .. لكي لا يتركوا لمسكين حام يحميه أو مدافع يذود عنه ..

شكل جيش الإمام حلقة حول الإمام حتى حجبوه عن أنظار العدو وبدءوا بالتراجع بشكل غير ملفت .. واستغل الجيش الأموي فرصة التراجع لجيش الإمام لكي يتمكن أفراده من إلتقاط أنفاسهم وجمع فلول جيشهم المبعثر فأغمدوا سيوفهم وبدءوا بالتراجع .. ولم يستشعر أحد من الجيش الأموي الكارثة التي حلت بأصحاب الإمام .. وظنوا إنما الأمر مجرد تراجع للمبيت .. فجعلوا يحصون قتلاهم وينظمون صفوفهم لخوض معركة الغد القريب.

وهناك في معسكر الإمام كان الأصحاب يمرون بأحرج اللحظات .. فقد هرع أصحاب الإمام لإحضار طبيب .. ودخل الطبيب وكان اسمه سفيان وكان مولى لبني فراس .. والإمام ملقى في حجر محمد بن سلمة الخياط .. وإلى جواره ولده يحيى بن زيد، ومحمد بن عبد الله، وجمع من أصحابه .. وذلك في بيت حران بن أبي كريمه في سكة البريد .. وكان أنين الإمام يحكي عمق الآلاَم التي يقاسيها في تلك اللحظات .. ورغم هذا كان يدير نظره بين وجوه أصحابه في إشفاق .. ولم تتوقف شفتيه عن الحركة كان في حالة ذكر واستغفار.

جلس الطبيب إلى جوار رأس الإمام .. وبدأ يمسح الدم من على جبينه .. ويركز على مكان خروج الدم .. ويمسحه مرة تلو الأخرى .. وظهرت ملامح الخوف على وجه الطبيب..

الإمام: ما الأمر أيها الطبيب هلا نزعت السهم؟ فالألم يزداد بشدة ..

كانت تلك الكلمات تخرج من صوت خافت وضعيف.

دمعت عينا الطبيب .. وانعقدت الكلمات على لسانه.

فتدخل يحيى بن زيد قائلاً:

- ما الأمر أيها الطبيب؟! حاول أن تفعل له شيئاً.

الطبيب: يا بني ليس بين والدك والرحيل عن هذه الدار إلا نزع هذا السهم .. فالسهم قد بلغ الدماغ.

شهق يحيى شهقة اهتز لها جسمه ودمعت عيناه .. وأكب على والده وقال:

- ابشر يا أبتاه .. تُقبل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وعلي، وفاطمة، وخديجة، والحسن، والحسين، وهم عنك راضون.

فقال له الإمام زيد (ع) بصوت ضعيف خافت قد أجهده الألم وكثرة النـزيف:

- أجل يا بني ولكن أي شيء تريد أن تصنع؟

يحيى بن زيد: أقاتلهم والله ولو لم أجد إلا نفسي.

زيد: افعل يا بني فإنك والله لعلى الحق .. وإنهم لعلى الباطل .. وإن قتلاك لفي الجنة .. وقتلاهم لفي النار..

ثم التفت إلى الطبيب وهو يرددالشهادتين وأشار إليه بنـزع السهم .. وفاضت روحه الطاهرة لتودع عالم الدنيا .. وتستقر إلى جوار ربها .. وتجاور الأحبة في جنة الفردوس.

وأظلت المكان سحابة كثيفة من الحزن الصامت .. وبدأت العيون تذرف الدموع بغزارة وصمت مطبق.

مزق ذلك الصمت صوت الفتى المؤمن المبتلى في أبيه عندما قال:

- الحمد لله الذي حقق مُناه .. فقد كانت الشهادة في سبيل الله غاية أمله ومناه .. فها هو يموت بسيوف فراعنة وجبابرة الظالمين .. فهنيئاً له ذلك ..

ثم التفت إلى أصحابه مخاطباً لهم:

- فما الرأْي الآن يا قوم .. أخاف أن ينتشر الخبر فيباغتونا .. فتؤخذ منا الجثة ويمثَّل بها .. فأين تريدون أن نواري جسده؟

اضطربت الآراء حول ما هو الأصوب .. فقال قوم نلبسه درعين .. ونلقيه في الماء .. وقال آخرون نلقيه بين القتلى.

فقال لهم يحيى بن زيد: والله لا يأكل لحم أبي السباع.

ثم استقر رأي الجميع على دفن الجثة في بستان في العباسية وإخفاء القبر حتى لا يعلم أحد موقعه .. فاجتمع من تبقى من خواص الإمام وأهل بيته وحملوا الجثة في وسط الظلام .. واتجهوا إلى ذلك البستان. وأوقفوا ساقية من الماء كانت تجري في وسطه وقاموا بتحويلها إلى مكان آخر وبدءوا الحفر في مكان تلك الساقية ثم دفن وأعيدت الساقية إلى مجراها من فوق القبر.

كل ذلك كان يتم بمنتهى السرية إلا أن عيناً كتبت على نفسها الشقاء في الدنيا والآخرة كانت ترقب ذلك المشهد من بُعْد .. كان الغلام السندي- غلام أحد الخياطين- يتبع أثر القوم حتى اطّلع على كل شيء.

الفصل الخامس

(١)

وبعد يومين من القتال كان قد أدرك أفراد الجيش الأموي عظيم خسارتهم في اليوم الأول والثاني وكان الرعب قد خيم في القلوب فما إن دخل أحد القواد على يوسف بن عمر .. حتى صاح به يوسف:

- أجيش قوامه الخمسمائة يُثبت لجحافل الجيش الأموي المدرب؟ وكيف إذا كانوا مجرد عرباناً جلاف حفاة لا خبرة لهم بالحرب وفنونه؟!

القائد: يا سيدي والله لو تأملت قتالهم وشدة صبرهم .. لجعلت الواحد منهم يعد بالمائة .. والله لولا الرماة كفونا شر المبارزة لأفنونا جميعاً.

يوسف بن عمر: أسكت أيها الأحمق.. والله لو سمع الجيش وصفك ما ثبتوا لهم من الغد ساعة .. أخرج لا بارك الله فيك.

* * *

وطلع الصباح والجيش الأموي في حالة من الذعر والفزع والضعف لما نالهم من أصحاب زيد .. ولكن الأوامر كانت تقضي بضرورة المواجهة والإستمرار إلى أن يحسم الأمر مع الإمام وأصحابه.

وانتظروا مدة من الزمن فإذا الأخبار بمقتل الإمام زيد (ع) تطرق أسماعهم لتملأ قلوب المجرمين سروراً كما امتلأت قلوب المؤمنين حزناً وألماً.

وإذا كان الأمويون لم يستطيعوا أن ينالوا من شخصية الإمام حياً بعد أن قارعهم في بداية حياته بالحجة والدليل .. وفي آخرها برؤوس القنا وحد السيوف.. فقد عبّروا عن دناءة النفوس وانعدام الفضيلة فيهم .. وسارعوا

إلى الاعلان عن بذل المكافآت المغرية لكل من دل على الإمام وصاحبيه -نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصاري- وما هي إلى ساعات حتى أقبل ذلك الغلام على الحكم بن الصلت فأخبره عن موقع القبر.

الحكم بن الصلت: من يذهب فيأتينا بجثته.

صمت الجميع تهيباً لبشاعة الموقف وكأن على رؤوسهم الطير.

الحكم: أما فيكم من يجرؤ عليه ميتاً؟ فكيف لو كان حياً إذاً لتركتم له العراق ووليتم فراراً؟ قم يا حجاج بن القاسم .. فأت به في الحال.

وانطلق الحجاج بن القاسم في بعض أعوانه حتى أتوا على البستان فنبشوا القبر واستخرجوا الجثة .. وحملوها على ظهر بعير.

وعلى باب القصر كان الجميع ينتظرون وصول جثة الإمام .. أوقف الجمل في وسط الجموع المحتشدة .. وبدلاً من إقعاد الجمل وإنزال الجثة أشار الحكم بن الصلت إلى بعض جنوده بفك وثاقها فهوت جثة الإمام إلى الأرض.

وضع الجميع أيديهم على قبضات سيوفهم .. وكأن الإمام ترجل حياً لا ميتاً .. فرحم الله أبا الحسين أفزعهم حياً وميتاً .. وما هي إلا لحظات حتى فصل الرأس عن الجسد.

وحمل الرأس الشريف إلى يوسف بن عمر .. فأمر من يطوف به في شوارع الكوفة .. وجعل الناس ينظرون إليه في إجلال واحترام .. فلكم طالت غيبة هذا الرأس وتخفيه .. ولكم إشتاق الناس إلى رؤيته.

وتجرأت ألسن السفهاء فصاغت مكنون قلوب مريضة .. فأندلع سيل من الشتائم والسباب لتكون وسيلة لهم

يتقربون بها من قلوب ولاتهم لينالوا بها لقمة عيش حقيرة.

وسريعاً انتقل الرأس الشريف تحوطه أيدي السفهاء وعباد الدرهم والدينار بعناية شديدة ليجوب صحاري العراق والشام.

* * *

ومع طلوع شمس أحد الأيام فتحت دمشق أبوابها ليدخل وفد تشيعه الطبول والأهازيج .. ويرتفع في وسط هذا الجمع ثلاثة من الرماح تحمل ثلاثة من الرؤوس .. ووقف الناس عن يمين وشمال الطريق ينظرون إلى هذا الوفد كل يسأل صاحبه: من أصحاب هذه الرؤوس؟

وخرج هشام من قصره يحوطه جنده .. وتشيعه حاشيته ويتبختر في مشيته .. وأقبل الوافدون عليه وقد أنزلوا الرؤوس ووضعوها بين يديه وتقدم متكلمهم قائلاً:

- مولاي أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين هشام بن عبد الملك بن مروان .. مولاي يوسف بن

عمر والي العراق يبلغك السلام ويقول لك طلباً لرضاك ووفاء لك قتلنا الفاسق بن الفاسق زيد بن علي .. وصاحبيه معاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة .. ونصر بن خزيمة .. وها هي الرؤوس بين يديك.

جعل هشام يمعن النظر في رأس زيد .. وهو لا يكاد يصدق أنه رأس ذلك الذي أقض مضجعه وعكّر صفوه بالأمس القريب .. وارتفعت أصوات الوزراء بالتهاني تبارك للخليفة نصره ويدعون له بطول البقاء ودوام الصحة.

وتقدم الخطباء والشعراء يتبارون في ميادين البلاغة والفصاحة .. يبالغون في المدح والإطراء لهشام وبني مروان .. ولا يألون جهداً في الذم لزيد وآل البيت عليهم السلام.

(٢)

أمر هشام أن يُرمى الرأس بين الدجاج .. وجعل هشام في كل يوم يخرج إلى الناس ويرفع الرأس على رمح .. ثم

يجمع له الناس .. وبدأ الخطباء والشعراء في اختلاق النقائص لعلهم بذلك يحقرون من شأن صاحب ذلك الرأس .. ثم رُفع فوق باب دمشق مدة من الزمن.

وبعد ذلك أمر هشام بالرأس فحُمل في موكب مهيب لبس أفراده أجمل ثياب الزينة وحملوا الطبول .. وأمرهم بالتوجه إلى المدينة.

وعلت أصوات الطبول وامتلأت الأجواء ضجيجاً وخرج أهل المدينة يتلمّسون الخبر .. وعلى بُعْد ظَهر موكب عظيم عليه ملامح الزينة والسرور .. تلمع ثيابهم الفضفاضة وعمائمهم المذهبة.

كان الجميع يتساءلون هل هو عرس أم ماذا؟! ولكن لم يجب أحد على هذا السؤال.

وما إن اقترب الموكب حتى انفجر طفل صغير في السابعة من عمره في أوساط الجموع المحتشدة بالبكاء .. وجعل ينادي ويجري باحثاً عن أمه:

– أماه .. أماه .. إنه رأس أبي ..

وعلم جميع أهل المدينة أن صاحب ذلك الرأس هو الإمام زيد بن علي (ع) فضج أهل المدينة بالبكاء .. وارتفعت الأصوات في ديار بني هاشم بالعويل والنحيب .. ولم تبق عين إلا بكت .. وكان والي المدينة الجديد إبراهيم بن هشام المخزومي يريد أن يعبر لهشام عن شدة وفائه وولائه فاستقبل الوافدين وأخذ منهم الرؤوس وأمر جنوده أن ينصبوها إلى جوار قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .. فدخل عليه بعض وجهاء أهل المدينة يرجونه أن لا يفجع أطفال ونساء آل البيت النبوي بمثل هذا المنظر .. فأبى وأغلظ لهم في المقال وتوعدهم.

ثم أمر مناديه أن ينادي في أهل المدينة برئت الذمة من رجل بلغ الحلم ولم يحضر إلى المسجد.

وجعل يجتمع الناس لمدة سبعة أيام يستمعون إلى الخطباء والشعار وهم يبارون في سب آل البيت عليهم السلام..

* * *

وفي أحد الأيام قام رجل يدعى محمد بن صفوان الجمحي يريد التكلم .. فلم يأذن له إبراهيم بن هشام في الكلام وصاح في وجهه:

- أقعد يا هذا..

فبقي ساعة جالساً في مكانه ثم قام مرة أخريمن غير أن يدعى لذلك.

فقال له إبراهيم بن هشام:

- أقعد يا هذا.

محمد بن صفوان: إن هذا مقام لا يُقْدر عليه كل ساعة.

ثم التفت محمد بن صفوان إلى الناس وأخذ في الخطبة .. فذكر علياً عليه السلام وبالغ في سبه .. ثم تناول الحسين عليه السلام وزيد بن علي وأهل البيت وكل من كان يحبهم أو يواليهم .. ولما بالغ في السب توقف فجأة ووضع يده على رأسه وخر صريعاً.

وفي فزع صاح رجل كان يجلس مقابل قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالتفت إليه عيسى بن سوادة وتلقاه بين يديه .. فإذا هو يرتعش لشدة الخوف .. فقال له عيسى: ما الأمر يا هذا؟!

الرجل: والله لقد رأيت القبر ينشق ويخرج منه رجل عليه ثياب بيضاء فاستقبل المنبر وقال: كذبت لعنك الله.

وانفض مجلس ذلك اليوم فجعل عيسى بن سوادة يتتبع أخبار محمد بن صفوان .. فأُخبر أنه أصيب بصداع في رأسه في تلك الساعة .. ولم تمض عليه تلك الليلة حتى فقد بصره.

* * *

كانت النساء في خدورهن والرجال في محاريبهم ينتحبون ويبكون .. والضجيج والنحيب يعلو بيوت بني هاشم .. وهيَّج هذا المشهد أشجان القلوب .. فخيم الحزن

عليها وأعاد إلى الأذهان ذكرى كربلاء.

لكن الكبت والإضطهاد كان هو المشهد الطبيعي .. فالناس قد صاروا أشبه بحجارة صماء لا تنطق ولا تجرؤ أن تعبر عما يدور في أعماقها .. فالسجن والتعذيب والقتل أصبح شبحاً يطارد الأحرار ويلجم الألسن.

ولما بالغ إبراهيم بن هشام في التشنيع على زيد بن علي .. وجعل يطوف برأسه بين شوارع المدينة أفصح الأحرار عن بعض مشاعرهم ..

فهذا كثير بن كثير بن المطلب السهمي ينظر إلى رأس الإمام مرفوعاً على الرمح فيقول: نضّر الله وجهك .. وقتل الله قوماً قتلوك ..

فأسرع الوشاة بهذا الخبر إلى إبراهيم بن هشام المخزومي فدعا كثير بن كثير .. وقال له هشام:

- أومثلك يجرؤ على هذا القول .. خذوا هذا السفيه وارموه

في السجن.

وما كانت مثل هذه الكلمات والمواقف تجعل كثيراً يتراجع عن موقفه فما كاد يستقر في سجن هشام حتى كتب إليه شعراً يقول فيه:-

إنَّ امرءاً كانت مساويه حب النبي لغير ذي ذنب
كذا بني حسن فوالدهم من طاب في الأرحام
ويرون ذنباً إنْ أحَبَّهم بل حبهم كفارة الذنب

فكتب إبراهيم بن هشام المخزومي إلى هشام بن عبد الملك في الشام يبلغه موقف كثير .. فكتب إليه أن أقمه على منبر المدينة وأجعله يلعن علياً وزيداً .. فإن لم يفعل فاضربه مائة سوط على ظهره.

فأخرج كثير من سجنه .. وجُمع الناس .. ووقف كثير على المنبر .. والأمير وجنوده من حوله يهددونه ويتوعدونه إن لم يسب علياً وزيداً عليهما السلام .. فانتصب قائماً وأنشأ يقول:-

لعن الله من يسب علياً وبنيه من سَوْقةٍ وإمام
تأمن الطير والحمام ولا يأ من آل النبي عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً أهل بيت النبي والإسلام
مرحباً بالمطيبين من النا س أهل الإحلال والإحرام
رحمة الله والسلام عليكم كلما قام قائم بسلام

(٣)

وهناك في العراق وفي منطقة الكُنّاسة في مكان في أطراف الكوفة .. كانت قد نصبت الأخشاب وأستعد جزارو البشر لتعليق فرائسها لهذا العام .. ليكملوا بذلك المشهد اللاإنساني فيرسموه في أشنع صورة عرفها تاريخ البشرية.

فبإسم الدين يقتل قرناء الكتاب .. وباسم الدين تسلخ أجساد العباد .. وباسم الدين يفرق بين رؤوس المؤمنين وأجسادهم .. أعز الله دينه أن يكون في أحكامه ما يدل على جواز قتل المؤمنين.

وصُلب جسد الإمام زيد عليه السلام .. وعن يمينه وشماله نصر بن خزيمة ومعاوية بن إسحاق عارية أجسادهم .. مكشوفة عوراتهم.

فأبت عناية الله إلا أن تعلن للخلائق عظيم فضلهم وعلو مقامهم .. فما كادت تطلع شمس اليوم الثاني من صلبهم إلا وقد نسجت العنكبوت على عورة الإمام فوارتها عن أنظار الخلائق .. فاستيقظ حراس الجثث ليروا هذا المشهد .. فامتدت يد أثيمة لتمزق تلك الخيوط لتظهر عورة الإمام من جديد .. وتكرر هذا المشهد مراراً .. وفي كل مرة كان الحرس يبادرون في إبعاد تلك الخيوط.

ولكن ما أذهل الحراس أن لحم البطن بدأ يتدلى حتى غطى العورة؟ وفي أحد الأيام أقبل رجلان من بني ضبة فجعلا يمشيان في تبختر وأنظارهم معلقة بالجثة .. فرفع أحدهم يده وضرب بها على الخشبة. ثم تلا قول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ

يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ من خِلاَفٍ أَوْ يُنفَوْا من الأَرْضِ}[المائدة:٣٣].

فأراد أن ينحي يده وصاح في فزع فالتفت إليه صاحبه فإذا يده قد انتشرت بالآكلة .. فولى المصاب فزعاً وجعل يصيح حتى وقع شقه وخرَّ صريعاً.

وجعلت في كل ليلة تنبعث رائحة طيبة لا يدري الناس مصدرها.

* * *

وفي أحد الأيام بعد ما بدأت القوافل تعود من موسم الحج مرَّ شبيب بن غرقد مع جماعة من أصحابه حتى بلغوا مكان خشبة زيد .. فإذا بنور ينبعث ورائحة تفوح كرائحة المسك فالتفت شبيب إلى أصحابه فقال:

- أهكذا تكون رائحة المصلوبين؟

فسمعوا هاتفاً يهتف: (هكذا تكون رائحة أولاد النبيين الذين يقضون بالحق وبه يعدلون).

وبقي ذلك الجسد الطاهر مصلوباً بالكناسة نحو أربع سنين حتى ذاع صيت كراماته .. في الوقت الذي كان هشام لعنه الله قد هلك وتولى بعده الوليد بن يزيد .. وبدأت ثورة الإمام يحيى بن زيد عليهما السلام بخرسان .. فكتب الوليد إلى يوسف بن عمر:

«أما بعد فإذا أتاك كتابي هذا فانظر عِجْل العراق فأحرقه وانسفه في اليم نسفا .. والسلام» .. فأمر يوسف بن عمر رجلاً يقال له خراش بن حوشب بإنزال جثة زيد بن علي فقام بإنزال الجثة ثم أحرقها حتى صارت رماداً، ثم نسفت في مياه نهر الفرات.

وأنشد الزمان على لسان الصاحب بن عباد:

قام الإمام بحق الله تنهضه ... محبة الدين إن الدين مرموق

يدعو إلى ما دعا آباؤه زمناً ... إليه وهو بعين الله مرموق

ابن النبي نعم وأبن الوصي نعم ... وأبن الشهيد نعم والقول

لم يشفهم قتله حتى تعاوره ... قتل وصلب وإحراق وتغريق

الفهرس

تصدير ---------- ٥
تقريظ ---------- ٧
تقديم ---------- ٨
مقدمة ---------- ٢٠
الباب الأول **٢٥**
الفصل الأول ٢٧
الفصل الثاني ٣٩
الفصل الثالث ٤٤
الفصل الرابع ٥٣
الفصل الخامس ٦٣
الفصل السادس..... ٧٢
الفصل السابع ٨١
الفصل الثامن ٩٩
الباب الثاني.....**١١٣**
الفصل الأول ١١٦
الفصل الثاني ١٣٠
الفصل الثالث ١٥٠
الفصل الرابع ١٦٠
الفصل الخامس ١٦٧